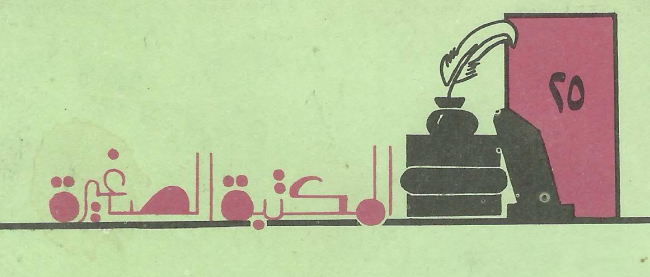


رحلة في كتاب من التراث

عبد القدوس الأنصاري

المكتبة الصغيرة

٢٥

رحلة في كتاب من التراث

عبد القدوس الأنصاري

الطبعـة الأولى

ربيع الآخر ١٣٩٨ هـ

ابريل ١٩٧٨ م

الغلاف من تصميم الفنان السعودي : علي الخرجي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله مستحق الحمد والثناء ، وصلاته وسلامه على سيد الأنبياء المختار من خلقه لرسالته الختامية ، للرسالات السماوية ، سيدنا « محمد » وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد فهذه « ورقات » ضمنتها جماع دراستي لكتاب يعد من أنفس كتب تراثنا الأدبي ، في حقل شعر البداهة والارتجال .. أحد الأفنان المزدهرة في دوحة الشعر العربي العمودي الأصيل الموزون المقفى الذى ولد في عصر الجاهليـــة ، ثم عمّ الآفاق في عصر الاسلام المديد الخالد :

وســار مســير الشمس في كل بلــدة
وهب هبــوب الريح في البــر والبحــر

مصاحباً في سياحته العالمية الخالدة الممتعة للفتوحات الاسلامية في شتى أرجاء المعمورة ماضــياً في تطلعــه وتحليقه وخــلوده الى الأمام ، متعاليــاً عن تأثيرات « الغزو الفــكري الأجنبي القديم

والحديث » ممعناً في استمراريته على طبيعته التى ولد فيها باديء ذي بدء على ربَوات نجد والحجاز من قبل عهد الاسلام حتى اليوم ، وما بعد اليوم ان شاء الله بفضل من الله وتوفيق ..

هذا واني وقد تتبعت قراءة ذلك الكتاب الذى هو : « بدائع البداثه » لعلي بن ظافر الأزدى الخزرجي ـ تتبعت قراءة نصوصه تتبع دراسة وفحص وامعان واستنباط .. ثم سجلت ما تجمع محصوله لدي حياله من ملاحظات وآراء وتعليقات وخواطر ، في هذه الأوراق ، وقد أشرت ضمن اطار ذلك كله الى مواقع الروعة والامتاع في أشعاره البدهية والمرتجلة ، ودونت انطباعاتي واستنباطاتي ، والتزمت الاعتدال في كل ذلك ، الى جانب دقة العمل ، والحرص على تسجيل الواقع دون تزيد أو نقص ، أو اجحاف أو بخس أو افتئات .

وقد عقدتُ في مطلع هذا الكتيب الذى سميته باسم مستوحى من موضوعه : « رحلة في كتاب من التراث » ـ عقدتُ في مطلعه فصلا عن « تقويم النثر الفني في أدب عصر المؤلف علي بن ظافر » متطلعاً الى أدب القرون التى مضت قبله ، والموالية له من كثب ، وذلك لنضع أدب عصره : شعره ونثره ، ومنه شعر البداثه والارتجال موضوع الكتاب ، في مكانه من ميزان التقويم .

وجدير بالذكر والاشادة أن كتاب ابن ظافر هذا لم يكن فيه مرتجلا ، ولا مستعجلا ، فطالما تعاهده بالتعديل والتنقيح ، حتى استوى على هذا الطراز المجلو ، الذى تقرؤه فيه اليوم .

ثم زاده قدراً ومكانة وافادة واشراقاً أن وفق الله أحد علماء العصر الحاضر ، أحد محققي كتب التراث العربي الاسلامي : محمد أبو الفضل ابراهيم ـ الى تحقيق طبعته هذه التي صدرت بمصر في سنة ١٩٧٠ م والتعليق على كثير من نصوصها بما يفيد ويرشد ، ووضع فهارس عامة له ، مما أضاء لنا أهم جوانبه المترامية ، وأماط لنا اللثام عن كثير من خبايا درره الكامنة .

بيد أن عمل البشر دائماً لا يخلو من سهو وخلل مهما يجتهد في تبرئته منهما ، وكل ذلك نتيجة ضعفه الطبعي الذى خلقه الله في دائرته .. ولذلك لا غرابة في أن نجد في بعض تحقيقات هذا العالم الجليل بعض الخلل سواء في جانب تحقيق نصوص الكتاب أم في جوانب أخرى أشرنا اليها في مكانها من الكتيب .

وهذا لا يضير عمله المرهق الموفق ، ولا ينقص من قيمته العلمية ، وقد عبر شاعر عربي قديم خير تعبير عما يعترى الانسان من نقص في خُلقِه وقصور في عمله ، بقوله :

ومن ذا الذى تُرضى سجاياه كلها

كفى المرء نبلا أن تُعَدّ معايبه

وكتاب ابن ظافر من هذا القبيل أيضاً ، فمع احتفال مؤلفه بالعناية به شكلا وموضوعاً فقد اعتراه بعض ما ينقد به بسببه فكثير من نثره سجع متكلف . غني بالمحسنات البديعية التي زادت عن حدها .. وهو في ذلك مسير بحكم بيئة عصره التي ارتضت هذا اللون من الكلام المتأنق فيه ، المتكلف ، المسجوع .

أما شعره المرتجل والبدهي فمع أنه خفيف الظل فقد طرق في أحد فصوله موضوعات جد تافهة في المعنى والأهداف والمرامي، ولم يوفق ـ مع كثرتها ـ في رفع مستوى شاعريته بها كما كان يروم .

ومع كل ذلك فسيظل كتاب « بدائع البدائه » لعلي بن ظافر الأزدي أحد « عيون الأدب العربي » كما أشاد به محقق طبعته هذه .

●—●—●

هذا وان من أهم مزايا الكتاب أنه يضع في أيدينا « برهانا واقعيا » على مدى اتساع بحر الشعر العمودي ومدى رحابة صدره وأفقه ، سواء أكان مترَوى فيه أم بدهيا أم مرتجلا ـ لشتى مرامي الانسان ، في تسجيل مطالبه ، وتحقيق خيالاته ، وابداع وصفه وتصويره ، لخلجات نفسه ، وما يستجد من مرافق الحياة أية كانت .

ومما يسترعي الانتباه ، ويؤيد قدرة الشعر العمودي المطردة حتى في ميادين العلم الصناعي ما قرأناه في هذا الكتاب القيم من تسجيل لمخترعات عربية في الحضارة الاسلامية الزاهرة بشتى المعارف والعلوم والثقافات . فهذا مثلا أحد علماء العرب الشعراء الأذكياء يخترع بفكره الألمعي ـ قبل الغرب بعدة قرون ـ « الانسان الآلى المعروف حديثاً بالروبوت » ثم تقوم شاعريته الثرة بتسجيل شعري بدهي لحقيقة هذا الاختراع الذى سبق اليه انسان العرب المسلم ، انسان الغرب المسيحي بقرون عديدة .

لم ياتيه شـاعر بديهة آخر معاصر له فتـأبى شـاعريته الثرة المتمكنة الا أن تسجل ما قام به زميله في تجربة علمية رائدة أو اختبـار فحصى للاختراع المشار اليه آنفـاً .. ويأتي ابن ظافر ليسجل لنا هـذه الوقائع في شـعرها البـدهي بكتابه الأنيق : « بدائع البدائه » .

●—●—●

ومتتبع كتابه هذا يدرك بحق براءة الشعر العمودي الموزون المقفي من التهمة التى يحـاول بعض المستوردين لمبـاديء الغزو الفكري الأجنبي ـ أن يلصقوها بهذا الشـعر الأصيل ، من أنه عاجز عن مجاراة الحيـاة المتقدمة .. ففي هذا الكتاب ما يقوض هذه التهمة وينفيها نفيـاً قاطعاً ، ويثبت عكسـها اثباتا تاما ملموساً ؟

عبد القدوس الأنصاري

الفصل الأول

تقويم النثر الفني

في عصر ابن ظافر وما قبله

ظل النثر العربي سائراً فى طريقه الترسلية البسيطة المنسجمة مع الذوق العربي المرهف الأصيل . ثم كان للحضارة والترف أثر كبير في أساليبه وفي معانيه . فأخذ يتدرج في التنميق والزخرفة ، مثل ما تدرج الناس في تنميق ألبستهم وأطعمتهم وسائر مرافق حياتهم .. ومن ثم كثر فيه استعمال البديع « المسجع » ودخلته المحسنات اللفظية ، ثم تغلغلت في أجزائه تغلغل الروح في الجسد والماء في البلعوم ، ومن ثم أصبحت الكتابة صناعة فنية محضة تزوق كما تزوق العمارات بالألوان من الزخرف المتعاطف وغير المتعاطف ، وأصبح الكاتب انما يُعنى فيها بالمبنى قبل عنايته بالمعنى في كثير من الأحيان .

وقد مضت القرون الأربعة الأولى للهجرة ، وفن الكتابة محافظ على أساليب البلاغة العربية ، لسلامة أذواق كتاب تلك العصور وغزارة معلوماتهم وسعة معارفهم ، فلم يصب كتابتهم انحطاط معنوي جارف ، من جراء الجري وراء بريق الألفاظ المنمقة .. فلما طلعت طلائع القرن الخامس الهجري برز قرن تحوّل الفن النثري العربي ، وبدأت مع ذلك مظاهر انحطاطه ، فقد افتقرت أذواق كثير من كتابه الى الثقافة العالية ، والى الذوق العربي المرهف السليم ، كما أفتقرت أذواقهم المختلطة بملوك الأعاجم وأثريائهم وذوي النفوذ فيهم ـ الى التمييز الصحيح .. فجاءت ألفاظهم وعباراتهم في الغالب الأعم مما يكتبونه نثراً ، ألفاظاً وعبارات مرصوفة كثيرة

الزخرف والتنميق ، بعيدة عن كل معنى مبتكر ، وبعيدة عن كل فن حقيقي ..

وكان القرن السادس الهجري مرتكز انحطاط الأدب العربي كله .. الذى غطى آفاق أدب العالم الاسلامي كله فيما بعد .

وكان أول علم من أعـلام الأدب العربي فتح للأدباء باب التنميـق والسجع المصطنع أدبيـاً في القرن الهجري الرابع ــ أبا الفضل محمد بن الحسين المعروف بابن العميد (٣٦٠ هـ ــ ٩٧٠ م) فهو الذى أخذ بادىء ذى بدء بزمام المبادرة في هـذا التحول من فن (الترسل) الى فن (الاسجاع) .

وتتلخص طريقته الكتابية فيما يلي :

أولا : التزام السـجع الـكثير الفقـرات الذى يوازن بين العبارتين المتجاورتين ، حسب الأنظمة الموسيقية .

ثانياً : التصوير والتلوين والتنميق والتطريز فيما يكتب مع وشي السجع في وشي البديع وضروب أساليب البيان ، فيحلي عباراته ويزينها بألوان البديع من طباق وجناس وغيرهما وذلك مثل قـوله : (لا جرم ان وقفت بين ميل اليك ، وميل عنك ، أقدم رجلا لصدك ، وأؤخر أخرى عن قصدك) .

ثالثـاً : عدم التقيد بالسجع والتنميق تقيـداً مطلقـاً ، وكان السجع والزخرفة شـائعين شيوعاً عظيماً في كتاباته ومن

كتاباته ومن شواهد ذلك قول ابن العميد : (أسأل الله آن يعرفني بركته .. ويرد علي غرة شوال ، فهي أسنى المقرر عندى ، وأقرها لعيني ، ويطلع بدره ، ويريني الأيدي متطلبة هلاله ببشر) .

رابعاً : الميل الى الترادف والاطناب ؛ فقد كان الأسلوب المسجع الذى يعمد اليه ابن العميد في كثير من الأحيان ، يتطلب من طبيعته الاطناب والترادف . ومثال ذلك قوله : (قد يغرب العقل ثم يؤوب ، ويغرب اللب ثم يثوب ، ويفسد العزم ثم يصلح)(١) .

خامساً : البراعة في استعمال حروف الجر وسائر الروابط الكلامية .

سادساً : الاغراب في الاشارات التاريخية واللغوية والعلمية، واغرابه قليل بالنسبة لغيره من المترسلين .

هذا على أن نثر ابن العميد كان صلة وصل بين عهد السجع المتأنق والعهد الذى سبقه(٢) .

وهكذا كان لابن العميد « مدرسة بيانية جديدة » في النثر

---

(١) تاريخ الأدب العربي ، لحنا الفاخوري ص ٧١٨ .
(٢) تاريخ الأدب العربي ، لحنا الفاخوري ص ٧١٨ .

الفني ، وهذه المدرسة لها تلاميذ متخرجون منها . ومنهم على سبيل المثال أبو بكر الخوارزمي (٩٩٣م/٣٨٣هـ) وأبو اسحاق الصابي (٩٩٤م/٣٨٤هـ) والصاحب ابن عباد (٩٣٨م/٣٥٨هـ) .. وكل هؤلاء من أهل القرن الرابع الهجري عاشوا الى أواخره كما ترى من تواريخ أعمارهم الآنف ذكرها .

●—●—●

وقد أفضت طريقة الترسل المسجعة السهلة الواضحة المركزة الى طريقة سجعية معقدة جعلت البيان العربي المنثور وقفاً على طائفة تثقفت بهذا اللون من ألوان الأدب النثري ، وقد أغلق باب هذا اللون من ألوان الأدب عن هواة الأدب الذين لم يوفقوا الى التخصص والبراعة في فن السجع وفن التعقيد والزركشة اللفظية ذات البهرج البراق ..

وكان امام هذه الطريقة ومختطها والحفي بها في القرن السادس الهجري هو مجير الدين عبد الرحيم البيساني المعروف بالقاضى الفاضل وزير صلاح الدين ثم وزير ابنه الملك العزيز من بعده .. وذلك أنه سن أسلوبا انشائياً بالغاً من التعقيد والتكلف مبلغاً عظيماً ودرجة عالية .. كما تدل عليه هذه الفقرات من رسالة كتبها عن صلاح الدين الى الخليفة ببغداد ، يبشره بفتح بلد من بلاد النوبة ، وانهزام ملكها بعساكره : (لم يبق الا مواقد نيران ، رحلت قلوبهم بضرامها ، وأثافي دهم

اعجلت المهامه ما رد سغبهم عن طعامها ، وغربان بين كأنها في الديار ما قطع من رؤوس بين جامها ، وعوافي كانت تنتظر من اشلائهم فطر صيامها ، وعادت الرسل المنفذة لاقتفاء آثارهم ، وأداء أخبارهم ، ذاكرة أنهم لبسوا الليل حداداً على النعمة التي خلعت ، وغسلوا بماء الصبح أطماع نفس كانت قد تطلعت ، وأنهم طلعوا الأوعار ، أوعالا ، والعقاب عقباناً ، وكانوا لمهابط الأودية سيولا ، ولأعالي الشجر قضباناً) .

●—●—●

واليك خصائص أدب القاضى الفاضل :

أولا : الاكثار من حل المنظوم ومن التضمين ، ومن الاطناب في الكلام . وكان للقاضى الفاضل أثر كبير فيمن عاصره، وفيمن أتى بعده من الكتاب من هذه النواحي كابن الخطيب الأندلسى . وقد انتشرت طريقته بسرعة بالغة في المشرق والأندلس ، وسار عليها الكثيرون في غيرهما .. فجاءت كتاباتهم كثيرة التكلف والتعسف ، قليلة البلاغة ، ولا سيما وقد ضعف التفكير ، وضعفت الهمم ، وقد أصبحت الكتابة رصف ألفاظ ، وزخرفة بيان ، وألاعيب لغوية فارغة كانت أحسن ممهد لعهد الانحطاط(٣) .

---

(٣) نفس المصدر السابق ص ٧١٩ الى ٧٢١ .

وفي كتاب « الحياة الأدبية في العصر العباسي في القرن الرابع الهجري»(٤) بلغت الكتابة العربية درجة عالية من الصناعة والتأنق لم تخل بسلامتها ، ولم تذهب بمعانيها » ، ولا بد أنه يعني بهذا القول عهد ابن العميد الذى سبق طلائع عهد الانحطاط بأمد مديد ..

وكان ابن ظافر مؤلف « بدائع البدائه » من ذلك الطراز الذى كلف بالسجع والتنميق ورضى بامامة القاضى الفاضل له فيه .



---

(٤) تاليف محمد عبد المنعم خفاجي .

الفصل الثانى

أحد عيون الأدب العربي

ذلك أن كتاب « بدائع البدائه » لعلي بن ظافر الأزدي الخزرجي تناول الشعر العربي من جانب واحد ، وهو ما قيل بداهة وارتجالا . في متتابع الأجيال ، وهو مركب ليس بالسهل ركوبه ، فان من يخصص تأليفه لهذا الجانب وحده من الشعر ، يقتضى أن يكون واسع الاطلاع على انتاج الشعر العربي عامة وهذا الجانب منه خاصة .. كما يقتضى منه دقة النظر وتمييز الجيد من الردىء بحصافة بالغة ، ونقد رواية الرواة حوله أو في ذات الشعر نفسه .. وقد اضطلع ابن ظافر بكل هذه المهمات، ونجح فيما اضطلع به نجاحاً يكاد يكون مائة في مائة ..

وقد أحسن في تدوينه أشعار الأجيال المتتالية من الشعراء العرب بحسب ترتيبها الزمني .. من عهد امرىء القيس في الجاهلية الأخيرة قبل الاسلام ، حتى القرنين السادس والسابع الهجريين اللذين عاش فيهما ابن ظافر بمصر ..

واذا كان ما يقول حنا الفاخوري في كتابه « تاريخ الأدب العربي » حقاً بأن امرأ القيس الذى بدأ ابن ظافر شعر البداهة بمحاورته لعبيد بن الأبرص قد ولد نحو سنة ٥٠٠م وتوفي في سنة ٥٤٠م فمعنى ذلك أن ابن ظافر تمكن من تقديم مسلسل متناسق من هذه الأشعار المرتجلة قرابة ثمانمائة عام .

فقد أورد ابن ظافر في كتابه مقطوعات منوعة بذاتها ،

منوعة في أمكنة شعرائها وأزمنتهم في شرق وفي غرب ، وفي شمال وفي جنوب .. مما دلنا على أن الشعر العربي الموزون المقفى ليس من الصعوبة بمكان ، كما يقرره لنا خصومه . فمعلوم أن الاتيان بهذا الفيض الطامي من شعر البداهة ، لشعراء متعددين ينقض غزل هذا القول من أساسه نقضاً مبيناً ..

●—●—●

وقد رأينا أن نصدر هذا الكتيب لكي نعطي القارىء العربي المتطلع فكرة كاملة عن أهمية هذا الصنيع الذى اختص به ابن ظافر كتابه ، فجاء آية من آيات الأدب العربي الذى أخرج للناس في القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجريين .. وهو بطبيعة الحال كما يدل على سعة أفق الشـعر العربي العمودي الموزون المقفى — يعطى القارىء أيضاً فكرة طيبة عن رحابة أفق كاتبه فيما خصص به كتابه الفذ أو القريب من الفذاذة ..

وقد يعيب بعض الباحثين المحدثين ، على ابن ظافر تشبثه بالنثر المسجع في مواطن كثيرة من كتابه ، ونجاحه فيما يتعلق بالمشاهد أو المناظر التى حازت اعجاباً منه بالغاً .. فليعلم هؤلاء الناقدون أنه كما أن لكل مقام مقالا ، ولكل مقال مقاماً فكذلك لكل زمان لون من ألوان الأدب خاص به ، يرتضيه أهله ويعكف القائمون على الأدب فيه ، بدعمه ونشره ما استطاعوا الى ذلك

سبيلا ، ولا يفكرون في أن يعكروا صفوه على حد آرائهم بانتهاج أسلوب آخر أو البحث عنه مهما يكن ذلك الأسلوب خيراً ممـا ارتضوه لأنفسهم في هذا الشأن ، وهذه الحقيقة تعم كل الأجيال، وكل الآداب العالمية في كل الأزمان .

ومن هذا المنطلق ـ كمـا يقول كتابنا المعـاصرون ـ كان طبعيـاً ومنطقياً تشبث ابن ظافر بالسجع في رسائله وكلمـاته الوصفية الخاصة بما يتعلق بالأدب من قريب أو بعيد ، سواء أكان منظراً معجبا ، أم مشهداً مطرباً ، أم نبأ ُمغرباً .

وليس ابن ظافر وحيداً في هذه الخطة ولا شاذاً عن أبناء العصور التي سبقتهم .. فقد اتخذوا جميعاً من هذا الأسلوب الذي لا يخلو من تكلف ومشقة على كاتبه ما وسعهم القيام به حيـال دعمـه وتثبيته .. فاذا كان ما يكتبون فيـه موضوعاً دون ذلك أعطوا أنفسـهم وأقلامهم حق بعض الراحة منه ، وخففوا عن أقلامهم بعض المتاعب حيال التزامها تتبع المحسنات اللفظية من طباق وجناس وما أشبه ، وجنحوا عامدين الى « النثر المرسل » كما يستريح الفارس المعلم من المعركة بعد ظفره على الأعداء فهم يرون أن ذلك المقام الرفيع يقتضى منهم تكلف أسلوب أدبي رفيع وممتاز بما حواه من المحسنات وأفنان البـدائع الزاهية النضرة في أنظارهم ، وأما دونه في المكانة فلا يمنع فيه التنازل

عن ارتقاء هضبة البيان الأرفع .

والحق يقال أن فحـولا من فحول الأسلوب النثري المسـجع المنمق قد ارتضوا لأنفسهم سلوك هذا الأسلوب ، فبرزوا فيه عن سواهم وعرفوا به منذ القرنين الخامس والسـادس الهجريين ، ونذكر في طليعة هؤلاء : الصاحب بن عباد ، والثعالبي ، وبديع الزمان الهمذاني ، والقاسم بن علي الحريري ، والقاضىالفاضل، والعماد الاصفهاني الذى بلغ من اعجابه بالنثر المسجع أن ألف كتـاباً بتمامه في تسجيل انتصارات صـلاح الدين معاصره على الصليبيين ، فجعله كله سائراً على نمط السجع وحشاه بالمحسنات البديعية اللفظية الرنانة .. وما اكتفى بذلك حتى جعل اسـم الكتاب نفسه مسجعاً متجانساً أيضا اذ سماه : (الفتح القسي في الفتح القدسي) ..

واذا كنا في عصرنا الحـاضر قد نبـذنا وراء ظهرانينا ذلك الأسلوب لأننا رأيناه بحق متكلفاً ، ورأينا حسب طابع عصرنا أن في سلوكه ارهاقاً لنا لا يوافق أمزجة الحياة الحاضرة السريعة ، ولا يتواءم مع التقدم العالمي ومن ثم لم يعد ممكناً لنا أن تعيش في ظلاله الصحافة التى هي آية عصرنا الحاضر ومهماز بيانه . ومن أجل ذلك أقبلنا على زميله السهل السلس الواضح : (الأسلوب المرسل) فما ذلك الا لأننا أدركنا عصراً آخر غير عصر ابن ظافر

.. أدركنا عصراً مغتقداً عجلا متسابقاً في مصالحه ، متداخلا في أبعـادة ومرافقه .. فسرنا في هذا السبيل الأسهل الذى رأيناه يوافق مطالبنا ، ولا يعني كاتبه ، ولا يتعب قارئه باستخراج درره الكامنة تحت حصبائه في قيعانه وكهوفه ، كمـا يستخرج صائد اللؤلؤ ، حباته من البحار العميقة من مكان بعيد .. متحملا أقصى المتاعب في سبيل استخراجها من مكامنها القصية وحملها الى سطح البحر من قاعه العميق .. ليعرضها للراغبين بعد ما ذاق لأجلها من الويل والثبور ، عظائم الأمور . على أن أدبنـا هذا الحـديث ذا الأسلوب الخفيف اللطيف لم نكن بدعا فيه فان له جذوره العريقة منذ عهد أسلافنا الأوائل ، فقد كان أدباء صدر الاسلام يكرهون التكلف فيما يكتبون للخاصة والعامة .. وانظر مثلا الى ما كتبه المبرد في الكامل وما كتبه عبد الحميد الكاتب ، وما كتبه الجاحظ ، وابن المقفع وغيرهما من أعلام بيان ذلك العصر المجيد ذي الطابع العربي الأصيل فانك تجد كل كتاباتهم آخذة طريق الأسلوب النثري المرسل الذى يتجنب موارد التكلف، ويؤثر الوضوح على التعقيد ، والجمال الفني المتفتح على الجمال الفني المركب .. ويؤثر الجلاء على الغموض والتزويق .

وإذن فان ما نكتبه من الأسلوب الأدبي المرسل في نثرنا هو أمر ذو طابعين : طابع الانبعاث في اختيار الأسلوب الأسهل على الأصعب ، والأوضـح على الأغمض ، والأبسـط على المركب ،

وطابع مجاراتنا لبني العصر في أسلوبهم الأدبي ذي الصلات الوثيقة بفن الصحافة الحديثة التى غزت بلادنا منذ أوائل القرن الرابع عشر ولا تزال تفرض نفسها بكل ما فيها من حسنات وسيئات وخير وشر على البلاد العربية والاسلامية معاً أسوة بغيرها من أقطار العالم ..

●—●—●

ومن الحق أن نقول ـ بعد دراسة نثر ابن ظافر الفني وشعر كتابه الخاص أنه كان الفارس المجلي في اجتلاء جواهر الشعر البدهي الخاص والعام ، ثم في بيان الأسلوب المنمق المسجع ، كما كان ذا براعة ملموسة أيضاً في الأدب النثري المرسل ، عندما يشاء أن يكتب في اطار هذا الأسلوب السلسبيل .

وشواهد هذا الرأي ماثلة للعيان في سائر أبواب كتابه (بدائع البدائه) فقد لاحظنا من دراستنا له أنه كان يطلق العنان أحياناً كثيرة لجواد بيانه ، في ميدان « النثر المرسل » اذا كان ما يصفه موضوعاً طبعياً أو خبراً مرويا أو حديثا عاديا لا يرتقي الى الفن الممتاز في نظره . أما اذا كان ما يجيل فيه قلمه وصفا أدبياً ذا طابع أدبي مميز ، فانه يتصاعد ـ كما يرى في تسجيله ـ الى أسلوب النثر المسجع ، ولا يريم عنه حولا .. وكما قلنا آنفاً فان له العذر كل العذر في هذا الأمر ، لأنه لم

يصل الى درجة « الريادة » في الأدب العربي ، كالجاحظ وعبد الحميد الكاتب ، وابن العميد ، فيخلق أسلوباً جديداً أو يعيد بعث الأسلوب النثري المرسل الذي كاد ينقرض آنذاك ، أو يحدث أسلوباً منمقاً ، خفيف الظل شبه مبتكر ..

وعلى ذلك فمن واجبنا أن نقدر لابن ظافر بيانه ومروياته من شعر البداهة كل التقدير ، وأن لا نلومه على اتخاذ سبيل كانت هي السبيل الوحدة للوصول الى أهدافه الوحدة أيضاً في كتابة النثر الأدبي الفني اذ ذاك ، وأن نشكر له خطواته الهادفة المتوثبة التي وضعت لنا على الشمام أدب أجيال متلاحقة من شعراء العرب مشتتة في مناطق الأقطار الاسلامية ، مجموعة بشكل فني لطيف وجذاب في كتاب واحد يعتبر بحق ، أحد (عيون الأدب العربي) .



الفصل الثالث

أضواء على الكتاب وكاتبه

كتاب « بدائع البدائه » ـ معلمة أدبية من نوع خاص ، ان لم ينفرد به فهو أحد عيونه .

وهذا الأدب أكثره أدب ظرف وتسلية وترويح عن النفس ، وترويض للفكر . ويشبه من يمعن في مطالعته من آثر أن يسير في أوقات تنزهاته بين الحدائق الغناء والمياه المتدفقة ، في جو معتدل صاح .. فانه يأنس من نفسه نشاطاً ، ومرحاً في مسيرته وتجواله ..

وفي هذا اللون من الأدب غدا المتعة النفسية متعة أخرى تتمثل في التقاط جواهر الحكمة ، والبيان الناصع ، والنوادر الطريفة المنثور كل ذلك في دواخله وفي جوانبه ..

ولا أكتم القارىء أني تماديت في دراسة هذا الكتاب من ألفه الى يائه حتى آخره .. وقد أنهيت قراءته في نشاط واقبال فائقين .

وليس من ريب عندي في أن كتاب بدائع البدائه ، يعد بحق من مدارس الأدب التراثي الرفيع والتفكير القيم ، وبوسع المرء أن يجتني منه ما شاء له ذكاؤه وألمعيته وأن يلتقط من جواهر المعاني التى تنير له أبعاد عقله ، وتطلق هذا العقل الى أجواء فسيحة من الأدب الجميل الذى يهيؤه ليكون أحد أدباء العصر بقدر استعداده ومواهبه .

ففيه فضلا عن الأدب الثقيل ، والأدب الخفيف ، مراكز حيوية من أدب المجتمع وأدب السياسة ، وأدب الاقتصاد ، وأدب

العلم ، وأدب الحياة جمعاء .. وهو يغني عن كثير من المراجع الأدبية ، وتجد فيه ما لا تجد في غيره من مطالبك الفكرية ورغائبك الفنية .. الى معلومات علمية وأدبية مقتطفة من شتى المصادر التي لا يمكنك أن تطلع عليها ، اما لأنها قد ذهبت أدراج الرياح ، أو لأنها لا تزال خطية مدفونة بين رفوف المكتبات الخاصة التي لا تكاد موجوداتها ترى الشمس ..

والكتاب وليد جهد نادر ، ومواصلة معاناة وانتاج بحوث وتنقيبات متوالية ، بدأت مع أوائل عمر ابن ظافر وانتهت بأواخر عمره .. فهو ثمرة عمر مبارك ألمعي شديد الحرص على انجاز مهمة كتابه وابرازه على خير منوال يحتذى .

والكتاب من ثمار عصر تحركت فيه عجلة الأدب عامة والشعر خاصة .. وسواء أنجحت هذه الحركة أم لم تنجح كما يبتغي صانعوها والسائرون في فلكهم فانها والحق يقال قدمت من المعارف الأدبية ، ما جعل في أنظارنا رجال ذلك الجيل ـ القرن السادس والسابع الهجريين ـ يمتازون بالتتبع والاستقصاء والجمع ، والاجتهاد في الوصول الى أهدافهم المثلى ، وقديماً قيل بحق :

على المرء أن يسعى على قدر جهده
وليس عليه أن يساعده الدهر

وقد ولد ووجد أعلام في العلم والأدب من جيل ابن ظافر

كانوا ممن يشار اليهم بالبنان ، وممن تضمخت بعرف تاريخ سيرهم الوضاءة في أعمالهم العلميـة والأدبية أسـفار ضخام من تاريخ تراثنا المجيد .. وليس هذا موضع احصائهم ، وانما نذكر من بينهم فى العلم والتاريخ ، العالم الطلعة : أحمد بن علي المعـروف بالمقـريزي صاحب المواهب العـديدة ومؤلف الـكتب ألمفيدة ، والرحالة الشهير محمد بن أحمد بن جبير(١) ، وصاحبنا العـالم الشـاعر الأديب الناقـد علي بن ظافر الأزدي صاحب الكتاب الفريد في بابه وفي اسمه : (بدائع البدائه) .. الذى طلق عالى المناصب الحـكومية في سـبيل العودة الى حظيرة الأدب واحياء روضها ، وانماء أشجاره وأزهاره ، والاستمتاع بجـوه الأنيق ، وملء فراغ الأذن بشدو أطياره .. والارتواء من معين أسفاره ، في مكتبـة داره الضخمة الجامعـة .. وغيرهم كثيرون وفـيرون .. كالعماد الاصـفهاني والقاضى الفاضـل والصـدر الخجندي .

ويكفي فخـراً إبن ظافر أنه عاش في عصر صـلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي قاهر الصليبيين ، الغلاب ، ومعيد مجد الاسلام ، ومجد العرب ، ومنقذ بلادهم من الاستعمار والاحتلال

---

(١) للمؤلف كتاب مطبوع عن حياة ابن جبير ورحلاته وادبه شعراً ونثراً وآرائه الاسلامية والاجتماعية والاقتصادية باسم (مع ابن جبير في رحلته) .

الذى دام حول مائتي عام لديارهم الكريمة العظيمة .

●—●—●

وقد ولد علي بن ظافر بالقاهرة سنة ٥٦٧ وتوفي بها فى منتصف شعبان سنة ٦١٣ هـ فله من العمر ٤٦ عاماً ، وقد قضى عمره فيموضوعيناثنين : أحدهما اداريوثانيهما أدبي .. الاداري هو شغل الوظائف والمناصب العالية التى كان آخرها منصب الوزارة للملك الأشرف موسى ابن الملك العادل احد ملوك بني أيوب في بلاد الرها من بلاد الشام وحران ونصيبين وسنجار والخابور ، وقد مكث في هذا المنصب الى أن تبرم به فاستعفى منه ، وعاد الى القاهرة ليكون حلس منزله والف مكتبته الحافلة بالأدب ، وكان يستقبل وفود الأدباء من كل صوب .. وكان من ثمار علمه وأدبه اصدار هذا الكتاب الفذ الذى حظي بحفاوة بالغة أولا : من القاضى الفاضل عبد الرحيم بن الحسن البيساني وزير صلاحالدين وامام صناعة الانشاء المتأنق المترف فى عصره، المولود بالقاهرة سنة ٥٢٩ هـ والمتوفي بها سنة ٥٩٦ هـ ، وثانياً : من الملك الأشرف موسى بن محمد العادل ابن أبي بكر محمد بن أيوب أحد ملوك الدولة الأيوبية بمصر والشام ، وقد كان « جرى في مجلسه ذكر هذا الكتاب ، فحسن من خاطره موضعه ، وجل عنده موقعه ، فرسم لى — المتحدث هنا المؤلف ابن ظافر — نقله » .

وكتاب علي بن ظافر هذا يشتمل على حكايات منثورة في كتب الأدب والنقد والتاريخ ، مثل كتاب الأغاني للاصفهاني ، ويتيمة الدهر للثعالبي ، ودمية القصر للباخرزي ، والخريدة للعماد الاصبهاني ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والمقتبس لأبي حيان ، والذخيرة لابن بسام ، والعمدة لابن رشيق ، وزهر الآداب للحصري .

يقول محقق طبعته الثانية بمصر محمد أبو الفضل ابراهيم ـ في مقدمته لطبعة الكتاب المذكورة آنفاً تعقيباً على كلامه الآنف ايراده : « وكأنه ـ أي ابن ظافر ـ وضعها جميعها بين يديه ، وقلب صفحاتها ، ثم انتقى زبدها واختار خالصها ، مما يوافق منهجه في التأليف ، ومذهبه فيما عقد من فصول الأبواب ، ثم أضاف اليها ما رواه عن شيوخه ، والعلماء الوافدين عليه ، وما وقع في مجالسه من مطارحات ومساجلات وحكايات وما دار بينه وبين شعراء عصره وأدبائهم ـ وأدبائه ـ في أثناء نزهاتهم بين الرياض والغياض ، وعلى أصوات النواعير وخرير المياه حول الشواطيء والغدران ، في غوطة دمشق أو أرباض القاهرة ، أو ساحة منارة الاسكندرية ، أو سفح الأهرام ، مما يذكي قرائح الشعر ويقدح زناد البديهة والارتجال » .

ويضيف محمد أبو الفضل ابراهيم الى ذلك قوله في التعريف بالكتاب الذى نتحدث عنه : « وبهذا أو ذاك اجتمع له طائفة من

رائق الأشعار ، وغرر الأخبار ، وبدائع البداته ، وروائع القصص ، ما لم يجتمع قبله في كتاب ، ثم رتب كل ما ورد من ذلك على الأعصار ، وسردها أحسن سرد ، وبذلك أوفي على الغاية في حسن العرض وجميل التنسيق وانسجام التصنيف » . ويزيدنا علماً بخصائص الكتاب المشار اليه ومميزاته فيقول :

(وقد غلب عليه عند سرد القصص والأخبار الأسلوب الذى كان يصطنعه أدباء عصره في أخريات القرن السادس وصدر القرن السابع (الهجريين) من الاحتفال بالمحسنات البديعية والحلى اللفظية فجاء نثره مسجوعاً موشى بصنوف الجناس والتطبيق والمقابلة والتورية والاستخدام ، كما فعل القاضى الفاضل في رسائله ، والعماد الاصفهاني في فريدته ، وابن بسام في ذخيرته، وهو أسلوب ان دل على الثروة اللفظية ، والمقدرة اللغوية ، فانه لا يخلو من التكلف والتعمل ، مما يذهب برونق المعاني ،ويباعد بينه وبين الأساليب العربية الفصيحة) ..

●—●—●

هذا ومن دراستنا للكتاب دراسة فحص وامعان ، ظهر لنا أن ما ذكره محقق الكتاب في التعريف به من ناحية غلبة السجع وغلبة المحسنات البديعية على الكتاب ، هو واقع ، ولكن المؤلف ابن ظافر اختص بذلك (النثر الفني) المسجع ، ما يتعلق بالوصف الأدبي المحض لبعض المناظر والمشاهد الأدبية الخالصة

لحسب ، مثل قوله في وصف قصر لبني خليف بظاهر الاسكندرية: (رسا بناؤه وسما ، وكاد يمزق بمزاحمته أثواب السما ، وقد ارتدى جلابيب السحائب ، ولاث عمائم الغمائم ، وابتسمت ثنايا شرفاته ، واتسمت بالحسن حنـايا غرفاته ، وأشرق على سـائر نواحي الدنيا وأقطارها ، وحيته السحائب بما ائتمنت عليه من ودائع أمطارها ، والرمل بفنائه قد نثر تبره في زبرجد كرومه، والجو قد بعث اليه لطيمة نسيمه)(١) .

لقد قصر علي بن ظافر ، نثر كتابه الفني على الأوصاف الخاصة بالمناظر والمشاهد التى تظفر باعجابه . وقـد تتبعتها في كتـابه فأحصيتها فاذا هي (٧٢) وصفاً أدبياً مسجعا أو منثوراً النثر الفني السائد لدى جيل ابن ظافر في القرن السادس وصدر السابع الهجريين وما قبلهما . وكان حامل لوائه في الجو المصري والشـامي في عصر ابن ظافر : القـاضى الفاضـل عبد الرحيم ابن الحسن البيساني وزير صلاح الدين وامام صناعة الانشاء المتـأنق في عصره . وهذا الانشاء ليس مرتجلا ولا مبتكراً في عصره بل ان له جذوراً قديمة وروداً قبل عصره ومنهم الثعالبي صـاحب يتيمة الدهر وابن بسـام صاحب الذخيرة وغيرهما من فحـول هـذا البيـان النثري التقليدي الذى امتدت فروعه الى

(١) بدائع البدائه ص ٣١٦ و ٣١٧ .

ما قبيل عصر النهضة الأدبية الراهن . وعلى رأسهم جميعاً امامهم ابن العميد(٢) .

---

(٢) ورد هذا النثر السجعي في مواضع عديدة من الكتاب ، بعضها مطول بعض الشيء ، وبعضها وجيز . وهذه أماكن وروده في طبعة الكتاب المحققة ، وذلك في مقدمة الكتاب : من الصفحة ٣ الى الصفحة ٩ ، في حكاية عن ابن بسام رواها عن زهير العقلي ص ٨٣ ، في حكاية رواها ابن ظافر عن نفسه ص ١٠٤ ، في حكاية رواها ابن ظافر عن ابن بسـام بمعناه واللفظ لابن ظافر ص ١٠٧ ، في حكاية رواها عن ابن بسـام (في الذخـيرة) تدور حـول المعتمد بن عباد ص ١١٣ ، في حكاية له مع شهاب الدين ابن أخت ابن المجاور بالاسكندرية ص١١٧ ، وفي حكاية رواها عن القاضي الاعز ابن المؤيد ص١٢٢ ، وفي حكاية له بالمقياس بمصر ص١٢٢ ، وفي حكاية عن ابن بسام ص١٢٧ ، وفي حكاية له عن أبي الفرج مع سيف الدولة ص١٣١ و ص١٣٢ ، وفي ص١٣٣ ـ ١٤٠ ، وفي صفحة ١٤٢ و ١٤٣ ، وفي ص١٨٧ ، وفي ص١٩٦ ، وفي ص١٩٧، وفي ص١٩٨ ، وفي ص٢٠٠ ، وفي ص٢٠١ ، وفي ص٢٠٣ ، وفي ص٢٠٤ ، وفي ص٢٠٤ ، وفي ص٢٠٤ ، وفي ص٢٠٦ ، وفي ص٢٠٧ ، وفي ص٢٠٨ ، وفي ص٢٠٩ ، وفي ص٢١١ ، وفي ص٢٢٥ ، وفي ص٢٢٧ ، وفي ص٢٢٩ ، وفي ص٢٤٣ ، وفي ص٢٤٤ ، وفي ص٢٤٥ ، وفي ص٢٤٧ ، وفي ص٢٥٤ ، وفي ص٢٥٦ ، وفي ص٢٥٧ ، وفي ص٢٥٨ ، وفي ص٢٦٠ ، وفي ص٢٦٨ ، وفي ص٢٩٣ ، وفي ص٣٠٢ ، وفي ص٣٠٦ ، وفي ص٣٠٧ ، وفي ص٣٠٨ ، وفي ص٣٠٩ ، وفي ص٣٠٩ ، وفي ص٣١٠ ، وفي ص٣١٣ ، وفي ص٣١٤ ، وفي ص٣١٤ ، وفي ص٣١٥ ، وفي ص٣١٦ ، وفي ص٣١٧ ، وفي ص٣٢٠ ـ ٣٢٥، وفي ص٣٤٣ ، وفي ص٣٥٧ ، وفي ص٣٦٧ ، وفي ص٣٦٩ ، وفي ص٣٧٠ ، وفي ص٣٧١ ، وفي ص٣٧٢ ، وفي ص٣٧٤ ، وفي ص٣٧٥ ، وفي ص٣٧٦ ، وفي ص٣٧٧ ، وفي ص٣٨١ ، وفي ص٣٩٠ ، وفي ص٣٩٢ ، وفي ص٤٠٥ ، وفي ص٤٠٧ .

فهـذه ست وسـبعون كلمة مسجعة من النثر الفني التقليـدي حسب اعتباره في عصر ابن ظافر ، وهي كل ما ورد في كتابه من القول المسجع الذي راعى فيه فن البديع ومحسناته .. وكلها تدور حول وصف منظر أو مشهد أو مخبر .. وأكثرها مما أعجب ابن ظافر نفسه فهو يصف به ما رآه أو خبره أو استحسنه أو رواه عن الآخرين .

هــذا وقــد عاش علي بن ظافــر في عصر مليء بالحـركة السياسية والأدبية والعلمية ، وبالنشاط الاجتماعي والعمراني والسياحي ، وخالط سلاطين بني أيوب وغيرهم في مصر والشام ، وعايش الكبار والصغار والأوساط من أدباء عصره وشعرائه ، سواء أكانوا من المقيمين بمصر والشام أم من الوافدين عليهما من شتى أقطار الاسلام ، وقد افتقدنا بينهم في كتابه (بدائع البدائه) الرحالة الأندلسى المعــاصر له الذى قدم الى القــاهرة وأراد جعل اقامته في أواخر حياته بالاسكندرية وبها قضى نحبه بعد وفاة ابن ظافر بيوم واحد ، ألا وهو محمد بن جبير صاحب الرحلة المعروفة .

هذا وقد لاح لى خلال دراستى لموضوعات الكتاب وأسلوبه .. أن طبيعة ابن ظافر الأصلية تميل الى النثر الفني (المرسل) الذى لا تكلف فيه . وآية ذلك ماثلة في نفس الكتاب ـ فان أغلب الحكايات والأخبار العادية التى أوردها فيه هي مبسطة ومرسلة وواضحة المعاني مسلسلة المباني ، ليس فيها سجع متكلف ولا محسنات بديعية جوفاء تعقد المعــاني المنشودة وتغلفها بضــباب كثيف من تلك التحسينات التى تجعلها أشبه بالتماثيل الضخمة الجوفاء الخالية من الروح والحركة الفكرية المتنامية .. ذلك أن السجع المتــكلف المحشو بالبديعيات ، قــد ألقى ظلالا كثيفة من التشوهات على ذلك النثر ، وهذا بخلاف وضع النثر ذي السجع

الخفيف الظريف في زمن الجاهلية وفي صدر الاسلام فانه خال من التكلف والتنميق ، والتعقيد . واخال أني قد فصلت القول في هذا الموضوع في مكانه من (الفصل الثالث) في هذا الكتيب .. مما نرى أن فيه الغنية عن اعادته مرة أخرى .

●—●—●

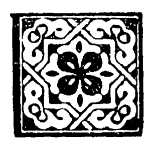
وهناك قضية أدبية أو فكرية اختلف فيها المؤلفون الأدبيون القدامى .. أشد اختلاف ، ولم يتفقوا فيها على رأي واحد ، ولكل حجته .. وهذه القضية هي قضية ايراد الألفاظ المستهجنة في الحكايات وفي الشعر معاً . بعضهم يرى هجرها لما فيها من قلة ذوق وأدب .. وبعضهم لا يرى هذا الرأي ، ويجزم بأنها لا ضرر منها ، وبأنها لا تخلو من فائدة الترويح عن النفس المكدودة فهي تزيح عنها متاعب الجد والكد في الحياة .. وخير ما ورد في تأييد هذا الجانب من الرأي قول ابن قتيبة في مقدمة كتابه (عيون الأخبار) :

« وانما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم ، لاختلاف شهوات الآكلين ، واذا مر بك حديث فيه افصاح بذكر عورة أو فرج أو وصف فاحشة ، فلا يحملنك الخشوع والتخاشع على أن تصعر خدك ، وتعرض بوجهك ، فان أسماء الأعضاء لا تؤثم ، وانما المأثم في شتم الأعراض وقول الزور

والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب(٢) .

وعلي بن ظافر في كتـابه موضوع بحثنا .. من أهل هـذا الرأي .. ولذلك نرى في كتابه نماذج من هذا الأدب المضحك أو الحـاوي للحكايات الماجنـة المطابقـة لمـا جاء في كتاب (عيون الأخبار) .

ومن رأينا أن « التوسط » خير ، فيؤخذ من هذا اللون من أدب المجون ما خف حمله ، ولم يغرق في وحل المجون قوله ..



---

(٢) مقدمة كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة ص (ى.ك) م١ طبعة المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والنشر بمصر ، هذا وقد أورد ابن قتيبة دلائل على رأيه المشار اليه وفى طليعتها الحديث النبوي الشريف : (من تعزى بعزاء الجاهلية فاَعِضّوه بِهَنِ ابيه) وقول الخليفة الأول ابى بكر رضى الله عنـه لبـديل بن ورقة حين قال للنبى صلى الله عليه وسلم : (ان هؤلاء لو قد مسهم حز السلاح لأسلموك) ـ قوله رضى الله عنه : (اعضُض بِبظَر اللات أنحن نسلمه ؟ (ص ٥) من الطبعة المذكورة آنفا .

الفصل الرابع

منهج ابن ظافر في كتابه

أدركت من دراستي لمنهج علي بن ظافر في تأليف كتابه « بدائع البدائه » أن هذا المنهج يقوم على عدة قواعد قررها المؤلف له ونفذها فيه بدقة .. ويبدو لى أن هذا المنهج هو منهج علمي حصيف :

أحدهما : أنه 'يقَـوِم' النص الشعري الذى يزمع نقله من المصادر ، التى اعتمدها لكتابه تقويماً سداه ولحمته الفحص الدقيق للنص من جميع نواحيه القريبة والبعيدة .. في كيانه الذاتي ، وفي كيانه اللغوي وفي كيانه التاريخي بين مجموعات الشعر الذى هو من شعر الارتجال والبديهة ، فاذا استبان له بعد ذلك كله أن الشعر مستوف لهذه الشروط بادر الى نقله من مصدره الذي سيذكره نصاً أو تلويحاً .. بسنده المتصل ان كان له سند أو بطريق المشافهة ان كان معاصراً ومواطناً .. ولا يخليه نقله له من نقده اذا كان فيه ما يرى أنه يستحق أن ينقد سواء أكان هذا النقد من أدباء وعلماء قبله أم في عصره أم منه هو شخصياً .

وليس من ريب في أن هذا المنهج منهج مرض للعلم والأدب معاً ، ويدل على أن علماءنا وأدباءنا القدامى كانوا مخلصين لعلمهم وأدبهم .. وكانوا يعرفون ويطبقون وسائل اثبات نصوصهما ، ونفي الزيوف والغاءها .. كما يدل على عقل علمي راجح ، وثقافة **أصيلة** .

ونحن نرى ابن ظافر يثبت شعراً منحولا في كتابه أو شعراً

منسوباً لغير قائله من ناقله ، ثم هو لا يسكت على هذا « الخلل » بل انه يكشف أمره علنا وينقده نقداً واضحاً بيناً ، ويقدم لنا دلائله على صحة نقله ونقده ..

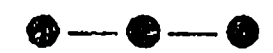
واذا كان قد خصص كتابه لشعر البديهة والارتجال ، فهو قيد التزم به ونفذه .. فلم يذكر فيما أذكر أي شعر غير بدهي أو مرتجل .. ومن الحق أن التزام هذا الشرط في كتاب ضخم ككتاب (بدائع البدائه) يدل على سعة اطلاع كاتبه وصبره على التقاط جواهره وعناصره من شتى المصادر المتفرقة في شرق وغرب وفي شمال وجنوب .

ومما التزم به ونفذه فعلا (وان لم ينص عليه) أنه لا يروى في كتابه أي شعر أو قصة شعر تتعلق بغير العرب مما سلف تدوينه فهو من هذه الناحية كتاب عربي محض .. اللهم الا قصة ذلك الشريف الحسني الذى عرب شعراً أعجمياً وشاع شعره فقلده غيره من معاصريه ومنهم ابن ظافر نفسه .. والحق أن نقل هذا الشعر الركيك الى الشعر العربي كان عملا ركيكاً بارداً غير مستحق لنقد أو لاشادة أو تقدير .. وقد نقلناه ونقدناه في الفصل الخاص بموضوعه من الكتاب .

ومع براعة ابن ظافر في نقله وعقله فانه لم يستطع بحال أن يظفر بالطريق الذى يحرره من قيود عصره في جموده .. فكان نثره الأدبي سجعياً متكلفاً نحا فيه نحو نثر « يتيمة الدهر » الذى جعل منه الثعالبي (مثالا) يحتذى في كتابة النثر الأدبي الراقي

كما كان يراه ويراه معاصروه ومن جاء بعدهم من أدباء العرب الى عصر الانبعاث الحديث .

وفي كتاب (أنباه الرواه على أنباه النحاه) لعلي بن يوسف القفطي عبارات هي : (وسجع له) يأتي بها المؤلف قبل ذكره للنثر المسجوع الذى يصف به بعض المترجمين بكسر الجيم - لمن يترجم المؤلف لهم .. وهـذه الصيغة بالذات تدلنا دلالة واضحة على أن أدباء تلك الأجيال (القرن الخامس والسادس والسابع الهجري) يعتبرون النثر المسجوع أعلى مستوى من النثر المرسل .. لأنهم يلمسون التكلف والعنـاية العميقة الموجهة منهم الى انشائه دون النثر المرسل السهلة كتابته .. راجع (ص ١٩٣) ج ١ .. وفي الصفحة ٢٤٧ ج ٢ ما نصه : « وسـجع له بعض الفضلاء فقال في وصفه : « وهو في النحو والاعراب » كعبة لها أفاضل العصر سدنة ، والفضل فيه بعد خفائه أسوة حسنة » وفي غيرهما كثير من هذا المعنى .



هذا ومن ميزات الكتاب أن مؤلفه قد تمكن من بيان منهجه فى تأليفه بوضوح كاف فى نطاق عباراته الملتزمة لجانب السجع دون جانب الارسال اذ يقول فى مقدمة كتابه :

« فحين ظهرت غرر هذا الحق وأوضاحه ، وأنار مصباحه

بل اصباحه ، ضم المملوك(١) جميع ما حصله من بدائع البدائه أولا وفرطاً ، وآخراً ووسطاً ، ورتب الجميع على الشرط الأول من ترتيب الحكايات والأخبار ، على ترتيب الأعصار ، الا ما يقتضى تقديمه مشابهة ومشاكلة ، وزيادة مقاربة ومماثلة ، وهو فن لم يجمعه قبلى أحد ، ولا سطرته قبل يدي يد »(٢) . وعلى كثرة ما تتبعت المصادر التراثية لم أعثر على من فرى فريه. وقد أشار الى هذا أيضاً محقق طبعة كتابه الأخيرة بمصر .

وبعد أن اعتمد ابن ظافر منهج ترتيب كتابه على الطراز المتقدمة الاشارة اليه ، تمكن من تقسيمه الى أبواب وفصول ، على النمط الذى ارتضاه والذى رآه موفياً لغرضه ، مؤدياً لما يريد أن يكون عليه وضعه .

وقد وضع له مقدمة أوضح فيها أغراضه من تأليفه والدوافع الى تأليفه ، وأبان فيها منهجه فيه ، والزمن المديد الذى قضاه في تجميع مادته من بطون أمهات الأدب ، وتنسيقها وترتيبها . وأعقبها بفصلين أوضح فيهما الفرق بين البديهة والارتجال لغة .. بعد ما شرح معنييهما في نظره حسب ما هدته اليه مراجعه .. وكان أول باب من أبوابه (بدائع الاجوبة) . فبدائع بدائه

(١) يقصد بالمملوك نفسه . وقد قال هذه الصيغة تادباً مع السلطان آنذاك .

(٢) بدائع البدائه ص٦ و٧ .

الاجازة . فبدائع بدائه التمليط .. ولا تهولنك صيغة التمليط هذه ، فانه يقصد منها ما قصده ذوو الأدب الشعري منها قبله .. وهو نوع من المحاورة الشعرية المرتجلة والبدهية حلله في موضعه من الكتاب تحليلا لغوياً وأدبيا وافياً بالمرام . وقد اعترضتني هذه الصيغة في عناوين الكتاب فبادرت الى مراجعة معناها فاذا هو سوي رضي لا غبار عليه أدبياً ولا لغوياً .. ولكن من ناحية مشاركتها لمعنى (التعرية) بقيت في نفسى حيالها بقية من استغراب واشمئزاز .. وبعد ذلك باب بدائع بدائه البدائه الذى هو خاتمة أبواب الكتاب .

ولا أكتم القاريء أنه بقي في نفسى حيال الوضع التقسيمي للكتاب بقية نقد من عدم تمكن مؤلفه من تجويد تقسيمه ، على المنهج المنظم الوافي التنظيم .. فنراه يضع له مقدمة عامة .. ثم مقدمة خاصة تحت عنوانين هما : (الفصل الأول في اشتقاق البديهة والارتجال) .. (والفصل الثاني في الفرق بينهما) .. ثم من بعد هذين الفصلين أورد أبواب الكتاب الخمسة .. فهنا شيء من نشاز لم يسع المؤلف الا اقتحامه لضمان تجمع الأهداف التى توخاها في كتابه .

وأكثر الأبواب بدون فصول .. ولكن الباب الرابع فرعه الى فصلين وحده دون زملائه الآخرين .. وهذا نشاز آخر أيضاً اضطره اليه المقام أو المقال .

تلك بعض ملاحظاتي على منهج « بدائع البدائه » لعلي بن ظافر ، وهي ملاحظات ما كان لها أن تقلل من شأن هذا الكتاب الفريد في بابه الذى لم أقرأ له قريناً .. ومعلوم أن الابتكار والابداع في كل شيء يرافقه خلل وقصور .. لا يتسنى لهما أن ُيعالجا وأن ُيصلحا ويكملا وينظما الى حد قريب من الكمال الا بعد معاناة والا بعد معالجة ومراجعة تقعان بعد دور الرواد بأزمان تتفاوت قصراً وطولا ، والا بعد جهود مضنية متوالية يصل بها الأمر المبتكر والمستأنف الى حد بعيد من التنظيم والتقويم والاجادة .

وأعتقد أنه يوجد من شعر الارتجال والبداهة في كتاب ابن ظافر ما قد لا يظفر به في سواه .. أو بالأحرى انه قد جمع كمية كبيرة منه ، كثير منها قيم وفذ ، وقليل منها دون ذلك على ما عرفناك به في غضون هذا الكتيب في الفصل الذي عقدناه خصيصى(٣) لذلك الشأن ...



---

(٣) هذه الصيغة بالألف المقصورة ، قبلها صاد مهملة مفتوحة هى الصيغة الفصيحة وحدها . أما قولهم وكتابتهم لهذه الصيغة هكذا : « خصيصاً » بصاد منونة بالفتحة فهو غلط ُلغوي مبين .

الفصل الخامس

أشعار من بدائع البدائه

يضم كتاب (بدائع البدائه) ـ (٥٠٦) حكاية ما بين صغيرة ومتوسطة وكبيرة .. وكل حكاية تضم طائفة من الشعر المتعلق بها .. وتبلغ الأبيات الشعرية التى تشتمل عليها تلك الحكايات : (٢٤٨٠) بيت من الشعر العربي الفصيح ، وجزء قليلا جداً من الشعر العامي المألوف قوله آنذاك .

وفي الشعر الموجود بالكتاب كثير من بدائع البدائه وروائعها، وبعضه دون ذلك، وبعض بعضه أقل مما هو دون ذلك.. والمؤلف يتوخى من كل ذلك ما يلي :

ترويج الأدب وتنشيطه واعادة روح الحياة اليه ، والترويح عن القارىء والتنفيس عنه بمتابعة هذه الحكايات المسلية اللطيفة ، وهذه الأشعار الظريفة المبهجة .

ولقد قمت بالاحصاء المتقدم لكي يقف القاريء على مدى اتساع دائرة الأدب العربي وجسامة أهدافه ، وسناء مطالبه ، وتعدد نواحيه ، وكثرة مبتكراته . هذا من جهة عامة .. ومن جهة خاصة ليقف القاريء وليرى بأم عينه كيف تمكن الأدب العربي من أن يربط في سلاسل ذهبية بين الحكاية ـ أو القصة ، وبين الشعر ربطاً وثيقاً منسجما حتى ان بعضهما ليتمم الآخر ، ولا يكاد ينفصل عنه بأي حال ..

والأشعار الواردة في هذا الكتاب جمعتها ـ كما قلنا في مكان

آخر ـ خمسة أبواب وفصلان معها . وكان عملا مناسباً أن يضع علي بن ظافر لكتابه مقدمة للتعريف بجهوده التي بذلها منذ ربيع عمره في سبيل اصدار هذا الكتاب الذى ربما كان الأول من نوعه . وقد جمعه من شتى المصادر .. الأدبية التي وصلت الى يده .. كما حوى (أخبار الشعراء في البدائه والارتجال) ومحاسن أشعارهم في مضايق الاسراع والأعمال مقدماً على كل قطعة شعرية حكاية نثرية أغلب ما تكون مرسلة غير سجعية .

وكتاب (بدائع البدائه) هذا يعد من عيون الأدب العربي الموروده المحمود ورودها ، فهو كتاب ممتع يجمع الى المتعة الافادة والاثارة . ولقد سرت في جوانبه روح عصره .. روح عصر صلاح الدين يوسف بن أيوب . ذلك السلطان الزعيم البطل الذى كبح جماح الصليبيين المعتدين عن متابعة استعمارهم واحتلالهم لديار الاسلام ، وفي طليعتها القدس وفلسطين وديار الشام فأجلاهم عنها بحد السيف الصارم ، والرأي العبقري المخلص النافذ .

حوار شعرى بين امرىء القيس وعبيد الأبرص

بدأ علي بن ظافر في هذا الكتاب بذكر حوار شعري بدهي دار بين أمير الشعراء الجاهليين : أمرىء القيس وزميله الشاعر عبيد بن الأبرص، حول أشياء ألغز بها شعراً له عبيد بن الأبرص وأجابه أمرؤ القيس على هذه الألغاز شعراً من نفس الوزن

والقافية . وكان مطلع هذه المحاورة البدهية بين فارسي الشعر الجاهليين قول عبيد متسائلا :

ما حيـــة ميتـــة أحيت بميتتهـــــا
درداء ما أنبتت نابا وأضراســـــــا ؟؟

فقال امرؤ القيس :

تلك الشـــــعيرة تسقى في ســـنابلها
فأخرجت بعد طول المكث أكداســــــا

فقال عبيـــــد :

ما السود والبيض والأسماء واحـــدة
لا يستطيع لهن الناس تمساســـــــا ؟

فقال امرؤ القيس :

تلك السحاب اذا الرحمن أنشـــأها
روى بها من محول الأرض أيباســــا

وهكذا مضى الشاعران في مساجلتهما على البديهة .. عبيد يسأل ، وأمرؤ القيس يجيب ، حتى انتهت هـــذه المحـــاورة الشعرية الى ستة عشر بيتاً ، آخرها قول عبيـــد بن الأبرص في تساؤلاته لزميله :

ما الحاكمـــون بلا ســـــمع ولا بصر
ولا لســـان فصيح يعجب الناســـــا ؟

وقول امرؤ القيس مجيباً عن هذا السؤال المحبوك بجـواب حسن الحبك بليغ :

تلك المـــوازين والرحمن أنزلهـــا
رب البرية بين النــاس مقياســـا(١)

مساجلة بين أبي جعفر العباسي وأبي تراب السريحي

ويثني ابن ظافر بمساجلة بدهية أخرى دارت بين الشريف أبي جعفر مسعود بن الحسن العباسي ، وأبي تراب هبة الله بن السريحي الشاعر حول قينة تسكن محلة (القطيعة) ببغداد ، اسمها (بدور) وكان أبو جعفر يعشقها وقال فيها :

شـــكا القلب ظلمتـــــه في الحشى
الي ، فأســـكنت فيــــه (بدورا)

وقد اجتمع الشريف أبو جعفر يوماً وأبو تراب هبة الله بن السريحي الشاعر ، فقال بديها يخاطب الشريف :

أســـلوت حب بدور أم تتجـــلد ؟
وســـهرت ليلك أم جفونك ترقـــد ؟

فقال الشريف بديها :

لا ، بل هم ألفوا (القطيعة) مثلمـا
ألفـــوا نزولهم بهـــا فتبعـــدوا

فقال أبو تراب :

فلام تصـــــبر ، والفـــــؤاد متيم
ولظى اشـتياقك في الحشى يتوقـــد !

فقال الشريف :

---

(١) بدائع البدائه ص ١٣ ـ ١٥ .

ما دام لي جـــلد فلست بجـــازع
اذ كان صبري في العـــواقب يحمـــد

فقال أبو تراب :

أحسنت ، كتمـــان الهـــوى مستحســـن
لو كان ماء العـــين ممـــا يجمـــد

فقال الشريف :

ان كان جفني فأضـــحى بدموعـــه
أظهـــرت للجلســـاء أني أرمـــد

فقال أبو تراب :

فهب الدموع اذا جـــرت موهتهـــا
فيقـــال : لم أنفاســـه تتصعـــد ؟

فقال الشريف :

أمشي وأسرع كي يظنـــوا أنهـــا
من ذلك المشي السريـــع تولـــد

فقال أبو تراب :

هـــذا يجـــوز ومثـــله مســـتعمل
لـــكن وجهـــك بالمحبـــة يشهـــد

فقال الشريف :

ان كان وجهي شـــاهدأ بهوى فمـــا
يـــدرى الى من بالمحبـــة أقصـــد

فقال أبو تراب :

قد رجم الناس الظنـــون وأجمعـــوا
أن التى ذُكـــرت اليهـــا المقصـــد

فقال الشريف :

لو يجمعون ـ كما زعمت ـ لما رووا
لى في ســـواها ما نظمت وأنشـــدوا

فقال أبو تراب :

قـــد كان حبـك غـــيرها متحققـــا
والأمر يحـــدث والهـــوى يتجـــدد

فقال الشريف :

حققت ’حبي غـــــيرها وجعلتهـــا
مظنـــونة ، ذا كلـــه لي جيـــد

فقال أبو تراب :

لو لم تقل ألفوا (القطيعة) جاز أن
تنفي به بـــدر التمـــام وتجحـــد

فقال الشريف :

ما قلت لي جـــلد نفيت به الهـــوى
عني ، ولـــكن قلت : في ، تجلـــد

فقال أبو تراب :

فالى متى هـــذا وطـــرف رقيبهـــا
مغض وطيف خيالهـــــا متـــردد ؟

فقال الشريف :

أنا دائبـــاً أبغي الوصـــال فان أبت
منـــه عـــلى عاداتهـــا فسأجهـــد

فقال أبو تراب :

اخضـــــع وذل لمن تحب فليس في
حكم الهـــوى أنف يشـــال ويعقـــد

فقال الشريف :

ذا ، لا يكــون مع الحبيب وانمـــا
مع ســاقط متحيــل يتعمــد(٢)

وهكذا بلغت أبيات هــذه المحاورة البدهيــة القوية عشرين بيتاً ، كل بيت منها درة متوهجة في معناه أو مبناه ، مما دلنا على أن كلا الشاعرين كان في شعره رفيع المكانة قــديراً مجيداً ذا خيال واسع جميل .. وقد زادت هذه المحاورة أربعة أبيات عــلى محــاورة عبيد بن الأبرص وامرىء القيس التى قــدمنا ذكرها قبلها في هذا الفصل ..

والشريف أبو جعفــر وأبو تراب ابن السريحي ، شــاعران اسلاميان . وكان من (نظام) صاحب كتاب (بدائع البدائه) أن يمضى قــدماً في هــذه المحــاورات مسلسلا اياها بحسب ترتيب العصور ، كما قرر ذلك فى مقدمة كتابه .. ولكننا نراه يعدل عن هذا الترتيب فيعود الى عصر الجاهليــة قصصاً ، فيورد لنــا بسنده المتصل الى الاصمعي خبراً و « حواراً » قصيرا يتمثل في بيتين اثنين قال أحدهما رجل جاهلي ضمن حكاية قصيرة تتمثل في أن (أول ما تكلم به النابغة ـ يعني الذبياني ـ من الشعر أنه حضر مع عمه عند رجل ، وكان عمه يحب أن يحاضر به النــاس ، ويخاف أن يكون عيياً ، فوضع الرجل كأساً في يده ،

(٢) بدائع البدائه ص١٥ و١٦ و١٧ .

وقال :

تطيب نفوسنا لولا قذاها
ونحتمل الجليس على أذاها

فقال النابغة :

قذاها ان صاحبها بخيل
يحاسب نفسه بكم اشتراها(٣)

وواضح أن الكأس التى قال فيها الشاعر الجاهلي المجهول الاسم فيما رواه ابن ظافر عن الاصمعي ، هي « كأس خمر » فهو يرمي بقوله عنها الى أن نفوسهم تطيب باحتسائها لولا قذاها وأذاها . ولذلك فهم يحتملون أذى شاربها جليسهم على ما يحمله لهم من أذى .. ولكن النابغة وهو يسعى للشهرة الشعرية عارض هذا الرجل فيما لا حق له في معارضته فزعم أن دعوته الرامية الى ابعاد الناس عن تناول الخمر ناشئة ومنبعثة من بخله في أداء ثمنها الباهظ نسبياً .. فهو – أي الشاعر الجاهلي المجهول الاسم الذى دعا الى الابتعاد عن الكأس والطاس – يحاسب نفسه بالثمن الذى اشترى به كأس الخمر وهذا من آيات بخله وشحه الغالب على نفسه على حد زعم الشاعر النابغة المبطن باستنكاره رأي المهجو في الخمر ابان الجاهلية .

وبعد أن صعد ابن ظافر الى شعراء الجاهلية عاد الى الشعر

---

(٣) بدائع البدائه ص١٨ .

البدهي في صدر الاسلام .. فأورد لنا حواراً شعرياً قصيراً دار بين جرير وعدى بن الرقاع العاملي الشاعر ، أمام الوليد بن عبد الملك الأموي .. وكان جرير دخل على الوليد بن عبد الملك وعنده عدى بن الرقاع العاملي ـ ولم يكن جرير رآه قبل ذلك ، فقال الوليد : أتعرف هذا يا جرير ؟ فقال : لا يا أمير المؤمنين ! فقال : هو ابن الرقاع ، فقال الوليد : هو من الذين قال الله فيهم : (عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية) .. قال : ويلك يا ملعون ! وقد أنشأ جرير أبيات هجو مقذعة في عدى بن الرقاع أضربنا عنها صفحا مع انها وردت في « بدائع البدائه » ومن ثم وثب عدي فأكب على رجل الوليد يقبلها ويقول : أجرني منه يا أمير المؤمنين ، فالتفت الوليد الى جرير وقال : وتربة(★) عبد الملك لئن هجوته لألجمنك ، ولأسرحن عليك ، ولأطيفنك بدمشق فيعيرك الشعراء بذلك . فخرج جرير فصنع قصيدته التى أولها :

حي الهدملة من ذات المواعيس

فالحنو أصبح قفراً غير مأنوس

(★) القسم بالتربة لا يقره الشرع الاسلامي .

افتخر بها بنزار ، وعدد أيامهم ، وهجا قحطان ، وعرض بعدي ولم يسمه فقال :

أقصر فان نزاراً لا يفاخـــــرهم
فــرع لئيم وأصــل غــير مغروس

وابن اللبــون اذا ما 'لز في قــرن
لم يستطع صــولة البزل القناعيس(٤)

بين أبي بكر بن القيطرنة وأبي العباس بن سارة

وثمت (حكاية) تجر وراءها أربعة أبيات من شعر البدائه ، رائعة المخبر ، جميلة المظهر ، جرت على لسان كل من الوزير أبي بكر بن القيطرنة والأستاذ أبي العباس بن سارة في يوم مطر ، ضحكت فيه الأرض لتعبيس السماء ، واهتزت وربت عند نزول الماء ، فترافدا (أي تعاونا) في صفتها (في صفة الأرض) فقال ابن سارة :

هــذي البســيطة كاعب أبرادها
حلل الربيــع ، وحليها النــوار

---

(٤) بدائع البدائه ص١٨ و١٩ واكباب عدى على رجل الوليد ، لانقاذه من هجاء جرير ، يشبه ذعر الأخطل من الجحاف السلمي واستجارته بعبد الملك من شر الجحاف .. راجع كتابنا (بنو سليم) ص٣٨٥ و ص٣٨٧ طبعة دار العلم للملايين ـ بيروت .

فقال ابن القيطرنة :

وكأن هذا الجـــو فيها عاشـــق
قد شــــفه التعــــذيب والاضرار

فقال ابن سارة :

فاذا شـــكا فالبرق قلب خافـــق
واذا بكى فـــدموعه الأمطـــار

فقال ابن القيطرنة :

من أجـــل ذلة ذا وعزة هـــذه
يبكي الغمام وتضـــحك الأزهار(٥)

●—●—●

أبو بكر الذى مر بنا ذكره في الكلمة السابقة لهذه هو من وزراء بني القيطرنة كان لهم ــ كما يلوح من حديث علي بن ظافر ــ قدم عاليــة في الشعر ، ومنح بعضهم موهبــة الارتجال والبداهة فيه .. فقد ذكر الفتح في « قلائد العقيان » وأورد ابن ظافر ما ذكره قائلا : خــرج الوزراء بنــو القيطرنة الى المنيــة المسماة بالبديع ، (وهو روض قــد اخضرت مسارح نبــاته ، واخضلت مسارى هبــاته ، ودمعت بماء الطل عيــون أزهاره ،

---

(٥) بدائع البدائه ص١٩٦ .

وذاب على زبرجده بلور أنهاره ، وتجمعت فيه المحاسن المتفرقة ، وأضحت مقل الحـــوادث عنه مطرقة) الخ . وانتبـــه كبيرهم (أبو محمد) في الصباح مستعجلا وأنشد مرتجلا :

يا شـــقيقي واف الصـــباح بوجه
ســـتر الليـــل نوره وبهـــاؤه
فانتبـــه واغتنـــم مسرة يـــوم
ليس يدرى بمـــا يجيء مســـاؤه

فانتبه أخوه أبو بكر القيطرنة ـ الذى سبقت آنفاً حـكاية حواره الشعري الناجح مع ابن سارة الشاعر ـ لصوته ، وتخوف لذهاب ذلك الوقت وفـوته ، وانتبـه أخوهمـا أبو الحسن وهو يرتجل :

يا أخي قم تر النســـيم عليـــلا
باكـــر الراح والمـــدام شـــمولا
لا تنـــم واغتنـــم مسرة يـــوم
ان تحت التـــراب نوماً طـــويلا(٦)

---

(٦) فى العصر الحديث والشعر العربى الحديث طرق هذا المعنى بخير من هذا المبنى شاعرُ العرب فؤاد الخطيب فى قوله من « القصيدة الطائفية » التى نشرتها لأول مرة ، مجلةُ المنهل التى صـاحبها ورئيس تحريرها كاتب هـذه الحروف ومؤلف هذا الكتيب .. قال فؤاد الخطيب رحمه الله يخاطب نفسه :

ودع النوم وان لج الـكرى ... فغدا تشبع نوماً فى القبور
تطبق الأجفـان فى ظلمتها ... وهي لا تعرف للصبح سفور

(ديوان فؤاد الخطيب ص١٣٨ طبعة مصر) .

فانتبه أخوه لكلامه ـ يبدو أنه أبو بكر ـ رافضاً لذة منامه، للذة قيامه ، وقال مرتجلا :

يا صـــاحبي ذرا لـــومي ومعتبتي
وبادرا قهـــوة من خـير ما ذخـــرا
وبادرا غفـــلة الأيام واغتنمـــا
فاليـوم خمر وتبدى في غد خـبرا(٧)

● ● ●

لقد صدق ذلك الذى قال من الشعراء : (وعداوة الشعراء بئس المقتنى) . فقد أورد ابن ظافر في كتابه حكايتين استطاع فيهما شاعران أن يأخذا ـ بشعرهما ذي الاثر البالغ في النفوس ـ ثأرهما ، وأن ينتقما به ممن حقدا عليه .. حسب ما ترويه القصتان التاليتان :

وذلك أنه (كان بين السميسر الشـاعر وبعض رؤسـاء المرية شيء لمدح مدحه به ، فلم يجزه عليه ، فصنع ذلك الممدوح دعوة للمعتصم بالله ، أبي يحيى ابن صمادح ، واحتفل فيها بما يحتفل مثله في دعوة سلطان مثل المعتصم .. فصبر السميسر الى أن ركب السلطان متوجهـاً الى الدعوة ، فوقف له في الطـريق ، فلما حاذاه رفع صوته قائلا :

---

(٧) بدائع البدائه ص٣٧٥ و٣٧٦ .

يا أيهـــا الملك الميمـــــون طائره
ومن لذى مأتم في وجهـــه عـــرس
لا تقربن طعـــاماً عند غـــيركم
ان الأســـود على المأكول تفـــترس

فقال المعتصم : صدق والله .. ورجع من الطريق ، وفسد على الرجل ما عمله(٨) .

ومحل الشاهد كمـا يقـول النحويون ، يتمثـل في تعبـيره الحاذق : (ان الأسود على المأكول تفترس) فانه قول مؤثر لأنه واقع فعلا .. فالأسود وأغلب الصيد انما يفترسان على الطعم المأكول ، يغرى به الصيد فاذا وثب عليه صادته الشباك أو صاده سلاح الرجال ...

فانظر كيف أدرك هذا الشاعر اللبيب علم النفس في هذه المسألة واستعمله خير استعمال في الموضـوع الذى يرغب فيه ، وفي المـكان والظرف المناسب للشخصية الـكبيرة التى من طبعهـا البشري أن تتأثر أبلغ التأثر بمثل هذا القول في هذا المكان وفي هذا الزمان ، وبالنسـبة لوضعه ووضع داعيـه المحتفل بدعوته أبلغ احتفال ، فاذا به يصيره بشطرة شعر في أوخم وبال ، وأتعس حال ، وأقلق بال .

(٨) بدائع البدائه ص٣٧٩ و٣٨٠ .

الشاعر عباد بن الحريش
يفسد عمل ثري وجيه بشعره

واليك الحكاية الثانية المماثلة التى يقول ابن ظافر ان الحكاية السابقة آنفاً أذكرته بها وكان قد نسيها ، فتنبه لها الآن .. تقول القصة : كان عباد بن الحريش قد مدح رجلا من كبار أصفهان ، من أرباب الضياع والأملاك والتبع الكثير ، وكان علي بن ظافر يعرف اسمه ونسبته ـ فمطله بالجائزة ، ثم أجازه بما لم يرضه ، فرده عليه ، وبعد ذلك بحين عمل الرجل دعوة عظيمة ، غرم فيها ألوف الدنانير ، لأبي دلف القاسم بن عيسى العجلي ، على أن يجيء اليه من الكرج . فلما استحق المغرم خرج عباد ليلا ، ووقف بين الكرج وأصفهان ، ووصل أبو دلف ، فلما وقعت عين عباد (الشاعر) عليه ، وهو يساير بعض خواصه ، أومأ الى ذلك المساير له وأنشا بأعلى صوته :

قل له ـ يا فديته ـ
قول عباد : ذا سمج
جئت في ألف فارس
لغداء من الكرج
ما على النفس بعد ذا
في الدناءات من حرج

فقال أبو دلف : وكان أخوف الناس من شاعر ـ صدق

والله ، أجيء من الكرج الى أصفهان ، حتى أتغدى بها !! والله ما على هذا مزيد من دناءة النفس . ثم رجع من طريقه ، وفسد على الرجل ما غرمه وعرف من أين أتي ، وتخوف أن يعود عليه عباد بأشد منها ، فسير اليه جائزة سنية مع جماعة ، فلم يقبل الجائزة ، ثم أنشد بديهاً فقال :

وهبت يا قــوم لــكم عرضــه

فقالوا : جزاك الله خيراً ، فقال :

كرامــة للشــعر لا للفــتى
لأنــــه أحــــرص مـــن ذرة
عــلى الذي تجمعــه في الشــتا(٩)

فأنظر رعاك الله كيف عرف هذا الشاعر أن يدخل الى شغاف قلب أبي دلف بسحر شعره واعتماده في التأثير به على «علم النفس» فقد سلك طريقه الى فؤاد أبي دلف من طريق القاء التنفير بين يديه على مركب من الشــعر اللبق الذي يعــرف من أين تؤكل الكتف ، فنال مرامه بأكبر قدر ممكن ، وأضاع على خصمه كل فرصــة كانت متــاحة له في التقرب من هذا الأمير الـكريم الوهوب ..

ثم أنظر كيف تأبى على « الوسـطاء » أن يعفو عن خصمه

---

(٩) بدائع البدائه ص٣٨٠ .

بعد ما أسقطه في هوة عميقة من الاخفاق وخيبة الأمل .. فأبدى معلطفا ومتشيطنأ ـ في الشطر الأول من بيتيه الأخيرين أنه وهب عرضه للوسطاء من أصدقائه ، وقد أثنوا عليه ودعوا له بالخير مقابل هذا العفو الذى يطمح اليه الخصم بكل جوانحه ورغباته، ولقد أيد هـذا العفو بأنه : (كرامة منه للشـعر الذى أهانه خصمه لا للفتى) .. ثم عقب مباشرة ومبادرة على هذه العبارة المفرحة مع شيء من الريب في مغزاها .. عقب مباشرة عليها ببيت قطع حبال أمل ذلك الخصم من أن ينال ما يطمح اليه كل الطموح من عفو هذا الشاعر .. ذلك العفو المطلق الكامل الشامل الذى يعيد اليه أنفاسه ويعيد مجارى المياه بينهما الى حالتها الطبيعية المرتجـاة فألقى عليه الشـاعر (عباد بن الحريش) في البيت الأخير من البيتين قنبلة هجاء أشد فتكاً من وقع الحسام المهند .. فقال ، معللا ما أورده من أن عفوه عنه هو لاكرام الشعر وليس لاكرامه هو لأنه لا يستحق الاكرام قال انه استحق هذا كله :

لأنـــــه أحـــــرص مـــــن ذرة

عـــلى الــذي تجمعــه في الشــتا

وهكذا قطعت جهيزة قول كل خطيب .. وبلغ الهجاء ذروته لهذا الفتى المغرور بماله الذى وصــل به الغرور الى حد اهانة هذا الشاعر القدير ...

شاعر ، ذو شعر ساحر

هل هي قصيدة بداهة ؟ أم أغنية من شعر التروي الدقيق ؟.. وأقصد بها القصيدة الفتانة المرقصة المدوية التى رواها صاحب « بدائع البدائه » .. فى نثر سلس القياد جميل الكيان والبنيان ..

تقول القصة المروية بسند متصل عن الحافظ ابن عساكر قراءة عليه .. قال : « بلغني أن علقمة بن عبد الرزاق العليمي لما قصد بدرا الجمالى بمصر ، رآى على بابه أشراف الناس وكبراءهم وشعراءهم ، فسألهم عن حالهم(١٠) فأخبرهم بقدومه ، قاصداً له ، فكل آيسه من لقائه ، فبيناهم كذلك اذ خرج بدر يريد الصيد ، فلما رآه مقبلا ، علا نشزا من الأرض ثم جعل في عمامته ريشة نعام ، ليشهر بها نفسه ، ولما قرب اليه أومأ برقعة كانت معه ، وأنشأ يقول :

نحن التجار وهذه أعلامنا
درر وجود يمينك المبتاع
قلب وفتشها بسمعك انما
هي جوهر تختاره الأسماع

---

(١٠) سياق الكلام يدل على أن الصحة : (فسالهم عن حاله) أي عن حال بدر الجمالى .

كســـدت علينـــا في الشـآم وكلمـا
قـــل النفـــاق تعطـــل الصـــناع
فأتاك يحملهـــا اليـــك تجـــارها
ومطيهـــا الآمـــال والأطمـــاع
حتى أناخـــوها ببـــابك والرجا
من دونهـــا السمسار والبيـــاع
فـــوهبت مالم يعطه في دهـــره
هـــرم ولا كعب ولا القعقـــاع
وسبقت هـذا النـاس في طلب العـلا
فالنـــاس بعـــدك كلهـــم أتبـــاع
يا بدر أقســم لو بك اعتصـم الورى
ولجـوا اليـك ، جميعهم ما ضـاعوا

قال : وكان على يد بدر باز ، فدفعه الى (البازدار) فضرب على يده وانفرد به عن الجيش ، وجعل يستعيده الأبيـات وهو ينشدها الى أن استقر في مجلسه ، ثم التفت الى جماعة غلمانه وأصحابه ، وقال : من أحبني فليخلع على هـذا الشـاعر .. قال (علقمة) : فوالله لقد خرجت من عنده ومعي سبعون بغلا تحمل الخلع .. وأمر لي بعشرة آلاف درهم ، فخرجت فقلت لمن ببابه : الحقوني يا متخلفين(١١) فلحقوني بأجمعهم ، فما فيهم الا من خلعت عليه ، ووهبت له من جائزتي(١٢) .

---

(١١) هكذا ورد هذا المنادى فى الكتاب .
(١٢) بدائع البدائه ص٣٨٤ و٣٨٥ .

حداد يقرض شعر البديهة

وهذا حداد يقرض شعر البديهة الجيد .. فقد دخل القاضى أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسين الآمدى النائب على الأمير السعيد بن مظفر فى أيام ولايته بالثغر ، فوجده يقطر دهناً على خنصره ، فسأله عن سببه ، فذكر ضيق خاتمه ، وأنه ورم بسببه .. فقال له : الرأي قطع حلقته قبل أن يتفاقم الأمر فيه ، فقال: اختر من يصلح لذلك ، فقال القاضي أبو عبد الله ، فاستدعيت أبا منصور ظافر بن القاسم الحداد ، فقطع الحلقة وأنشد بديهاً :

قصر في أوصـــافك العـــالم
وأكثـــر النـــاثر والنـــاظم
من يكـــن البحـــر لـــه راحـــة
يضـــيق عن خنصـــره الخـــاتم

فاستحسنه الأمير ، ووهبه الحلقة ، وكانت من ذهب .

● ● ●

واتفق فى ذات الوقت أن كان بين يدي الأمير غزال متأنس قد ربض ، وجعل رأسه فى حجره .. فقال ظافر :

عجبت لجـــرأة هـــذا الغـــزال
وأمـــر تخطى لـــه واعتمـــد
وأعجب به اذ غـــدا جاثمـــاً
وكيف اطمـــأن وأنت الأســـد ؟

فزاد الأمير والحاضرون في الاستحسان .

● ● ●

وتأمل ظافر شباكاً على باب المجلس تمنع الطير من دخولها فقال :

رأيت ببــــابك هــــذا المنيف
شــباكاً فــداخلني بعض شــك
وفــكرتُ فيمـــا رآى خاطــرى
فقلت : البحــار مكان الشبك(١٣)

● ● ●

قصة زر من ذهب في تفاحة عنبر

زر من ذهب فى تفاحة عنبر .. كان ذلك هدية من امرأة علق بها الوزير المزدقاني حين رآها فى بعض القصور فأعجبته ، فوقف متأملا لها ، فأشارت اليه ، وآنس منها قبولا ، فأرسل اليها رسولا يعلمها بشدة شوقه ووجده بها ، فردت رسوله بتفاحة عنبر بها زر من ذهب ، ولم تكلمه بشىء ، فلم يفطن هو ومن حضره لتأويل ذلك ، فقال له ابنه أحمد : قد فهمت ما أرادت . ونظمه فى الحال فى بيتين ، وأنشد :

أهــدت لك العنــبر في جــوفه
زر من التــبر خفي اللحـــام

(١٣) بدائع البدائه ص٣٨٦ .

فالزر في العنـــبر معناهمــــــا :
زر هكذا ، مختفيا في الظـــــلام(١٤)

هذا وما أروع قوله عن عملية الصاق الزر الذهبي بالتفاح العنـــبري بأن لحامهما ببعض كان خفيـا .. وما أجمـل تأويله العملية الصناعية الدقيقـة : عملية الصاق زر الذهب بتفاحة العنبر فان تأويلها هو رغبتها في أن يزورها هكذا ، مختفياً في الظلام ، اختفاء الزر في التفاحة .. وما أبدع معرفته لسر هـذا اللغز العميق وتفسيره له بهذا الشعر البدهي الجميل .

● ● ●

خزانة كتب بشكل سلم

وهذه خزانة كتب ابتكر شكلها السلمي ، عتيق بن مؤمن القرطبي الأنصاري والد راوي قصتها الشيخ أبي الحسن علي بن عتيق الأنصاري ، وهي خزانة كتب في شكل (محمل للكتب من قضبان شبه ـ صفر ـ تشبه سلماً . فدخل عليه أبو عبد الله محمد بن مفيد ، فرآه ، فقال ارتجالا ، مخبراً عن لسان حال السلم :

أيهـــا الســـيد الذكي الجنـــان
لا تقســـني بســـلم البنيـــان
فضـــل شـــكلي عـلى الســلالم أني
محمـــل للعـــلوم والقـــرآن

---

(١٤) بدائع البداهة ص٣٨٧ .

حـــزت من حليـــة المحبين ضعفي
واصـــفراري ورقـــة الأبـــدان
فادع للصـــانع (المفيد) بفـــوز
ثم وال الـــدعاء للاخـــوان

ثم عمل أيضاً على لسان السلم قوله :

أيهـــا السـيد الـكريم المســاعي
التقت صنعتي وحســـن ابتـــداعي
أنا للـــكتب محمـــل خف حمـــلى
أنا في الشـــكل (سلم) الاطلاع(١٥)

فما أجمل التقاء صنعة هذه « الخزانة » السلم ، بصنعة هذا الشـاعر الذى تحدث عن لسان هذه الخزانة المبتكرة الطراز ، بصنعة صانعها الألمعي الطراز .

●—●—●

شاعر بديهة غلاب

ويتحدث ابن ظافر في قصة أخرى فيقول : (دخل الفقيه الحافظ بن دحية على الفقيه أبي بكر عبد الرحمن بن مغاور السلمي ، فوقع الكلام في علوم لم تكن من جنس فنونه ، فقال بديهاً :

(١٥) بدائع البدائه ص٣٨٨ .

أيهــــا العـــــالم ادركني ســـماحاً
فلمثـــلى يحـــق منـــك الســـماح
ان تـــــراني اذا نطقت عييــــا
فبنــــــاني اذا كتبت وقـــــاح
أحـــرز الشـــأو في نظـــام ونثـر
ثم أثنى وفي العنــــان جمـــــاح
فبهـــزل كمـــا تأود غصـــــن
ويجـــد كما تسل الصـــفاح(١٦)

فما أحسن المنطق فى شعر سهل ممتنع ، زاده جمالا وألقاً انه مما قيل بداهة دون ترو وتصنع ..

• • •

من شعر البرغوث والبق والبعوض والذباب

ثم هذا شعر (البرغوث والبق والبعوض والذباب) يصفه وقعه وأذاه البالغ جماعة من شعراء العرب .. أخذ كل واحد منهم وصفه بداهة مما عانى من ايذاء بعض هؤلاء الأعداء الألداء .. الضعاف جداً ، جسما ، الأقوياء جداً عزماً ، وقرصاً ومصاً فقال (بديها) أبو السعادات علي بن بختيار في عدوى البشرية : البرغوث الناطق ، والبق الصامت ، وقد اقترح عليه أن يقول فيهما :

---

(١٦) بدائع البداته ص٣٩١ .

ولمــا انتحى البرغوث والبــق مضجعي
ولم يك من أيديهمـــــــا لى مخلص
صــفقت بكفي ، اذ مدامتهـــا دمي
فـــزمر هــذا وابتـــدا ذاك يرقص

وقال العماد : وقد كنت عملت أبياتاً ، ارتجالا ، لأصف بها ليلة بتها بنهر دقلا ، فقلت :

يا لحــــا الله ليــــلة قـــــرصتني
في دياجــيرها البـــراغيث قرصــا
شــــــربت بقهــــــا دمي فتغنت
وبراغيثهـــــا تواجــدن رقصـــا
قـــد تعـــريت من ثيــابي لقرصي
غـــير أني لبست منهـــن قمصــا
كلمـا زدت منعهـــن بحــــرص
عن فـــراشي شربن فازددن حرصــا
من براغيث خلتهـــــا طافـــرات
طائرات ، جناحهـــا قـــد قصــا
عرضت جيشـــها الفريقـان حـولي
وهي أوفي من أن تعــــــد وتحصى
لو غزا ســنجر بهـــا الغـــز يوماً
لم يدع منهمُ على الأرض شخصا(١٧)

(١٧) بدائع البدائه ص٣٩٣ .

فهذا شاعر يتحدث لنا في شعر البداهة عن تجربة مرت عليه مع « المثنى الضار » : البراغيث والبق ، وليست التجربة الفعلية كالاقتراح المتخيل نتاجه .. على كل حال ..

وهذه تجربة واقعية أخرى يحدثنا بها الشاعر « الحافظ ذو النسبتين » أو الخطاب ابن دحية الحصري وقد أنشد هذه المقطوعة لعلي بن ظافر فقال :

ضاقت بلنسية بي
وزال عني غموضي
رقص البراغيث منها
على غناء البعوض

لقد أجمل المعنى الشعري وركزه بهذا الاحتصار الموفق :

رقص البراغيث منها
على غناء البعوض

وتجربة أخرى لنسميسير في هذا الموضوع ، نشد شعرها لابن ظافر أيضاً :

بعوض شربن دمي قهوة
وغنينني بضروب الأغان
كأن عروقي أوتارهن
وجسمي الرباب وهن القنان(١٨)

---

(١٨) لعلها : (القيان) بالياء المثناة التحتية ، جمع قينة على ما يقتضيه سياق الشعر .

لقد أحسن الشاعر السميسير هنا ترتيب الأوصاف الثلاثة في تشبيهات محبوكة لطيفة فكأن عروقه أوتار البعوض ، وكان جسمه الرباب ، وكأنهن القيان المغنيات بأوتار الرباب ..

وقد جمع الثلاثة كلها ابن رشيق القيرواني .. الذباب ، والبعوض ، والبرغوث ، في سمط بديع من القول المرتجل أو البداهي .. فقال :

لك مجلس كملت بشارة لهونا
فيه ، ولكن تحت ذاك حديث
غنى الذباب فظل يزمر حوله
فيه البعوض ، ويرقص البرغوث(١٩)

● ● ●

ولأحد شعراء اليتيمة أبي أحمد بن أيوب ، قوله في البرغوث والبعوض معاً :

لا أعذل الليل في تطاوله
لو كان يدرى ما نحن فيه نقص
اذا تغنى بعوضه طرباً
أطرب برغوثه الغنا فرقص(٢٠)

وهو قول بديع ورائع على أنه من شعر البداهة الذى ينأى

---

(١٩) بدائع البدائه ص٣٩٤ .
(٢٠) بدائع البدائه ص٣٩٤ .

عن التروي والتصنع والتكلف ، فهو يجيء واضحاً مبسطاً شفيفاً عن شاعرية قائله .

● ● ●

هذا وان أقدم وصف وأسماه قوله تعالى فى وصف الذباب ضعفاً وتشبثاً : (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له : ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) صدق الله العظيم .

● ● ●

ومن أقدم ما ورد فى الشعر العربي عن وصف الذباب ، قول عنترة في معلقته يصف روضة من رياض البر يتحرك فيها ذباب الرياض فيحدث دوياً على قدر حاله .. ولقوة شاعرية عنترة ودقة ملاحظاته يستخرج من تحرك هذا الذباب بتلك الروضة الغناء صوتاً موسيقياً رائعا فيقول :

وخــلا الذباب بهــا فليس ببــارح
غــرداً كفعل الشــارب المتــرنم
هــزجاً يحــك ذراعــه بذراعــه
فعل المكب على الزناد الأجــذم(٢١)

---

(٢١) معلقة عنترة .

وبالمناسبة فهناك في القرون الأخيرة للهجرة ، وبالدقة في القرن الثاني عشر الهجري يوجد شاعر من المدينة هو السيد جعفر البيتي ، نظم قصيدة مطولة في وصف ما عاناه من البق في مدينة ينبع البحر . وكان نظمه لهذه القصيدة سنة ١١٤٣ هـ وقد عارض بها قصيدة فتح الله بن النحاس .

ومطلع هذه القصيدة المثبتة في ديوانه المخطوط بمكتبة عارف حكمة والتى نشرناها فى ص١٨ من الجزء السابع من مجلة المنهل، السنة الثانية سنة ١٣٥٦ هـ الموافقة ١٩٣٨ م هو :

رأى البق من كل الجهات فراعه
فلا تنكروا اعراضه وامتناعه
ولا تسألوني كيف بت فانني
لقيت عذاباً لا أطيق دفاعه

وتعتبر هذه القصيدة من أقوى قصائده وأمتنها ، وأجملها ، وأشملها لوصف هذا المخلوق اللاسع اللاذع القوي اللسع واللذع على ضعف جسمه وضآلته وهلهلته وميوعته سريعة الانفجار بأهون المفجرات .

●—●—●

شعر البطيخ

يطلق السعوديون المعاصرون ـ حجازيون ونجديون ـ اسم (البطيخ) على الفاكهة المستديرة التى لونها من الخارج أصفر

خشن ، ولون داخلها أصفر أقرب الى الحمرة هش كثير الحلاوة .. ويسمون الفاكهة المستديرة ذات اللون الخارجي الأخضر ، حمراء الداخل باسم (الحبحب) وهو اسم عربي فصيح أيضاً . وهذه البلاد هي مهد العروبة والاسلام فهي أعرف بحقيقة مسميات اللغة العربية الفصحى لارتباطها بتاريخها القديم ارتباطاً أوثق مما عداها من الأقطار على كل حال . لأنها التربة التى ولدت فيها وترعرعت .

واخواننا المصريون المعاصرون يسمون النوع الأول (شماماً) ويسمون النوع الثاني بطيخاً فأما (الشمام) فهو ــ على وزن (شداد) بطيخ كحنظلة صغيرة مخطط بحمرة وخضرة وصفرة .. رائحته طيبة ملينة جالبة للنوم وأكله ملين)(٢٢) .

وأما تسمية النوع الثاني ذي اللون الخارجي الأخضر فيبدو أنه تحريف للمسمى به بالنسبة للاسم الصحيح له .. حتى في عرف قدمائهم .. وذلك ما يدل عليه ما أورده علي بن ظافر المصري من الحكايات البطيخية الشعرية في عصره ومصره ــ القاهرة وما حولها من المدن والأرياف ..

قال :

وأخبرني أبو عبد الله المنجم بن العراف ، قال . دخل

(٢٢) القاموس المحيط .. مادة (الشم) .

منزلي الأديب الأعز أبو الفتـــوح ابن قلاقس ، وجماعة من أصحابنا ، فأحضرت لهم بطيخة صفراء وشققتها عليهم .. فارتجل الأعز :

أتانا الفقيــــه ببطيخــــــة
وســـكينة قد أجيـــدت صـــقالا

فقطـــــع بالبـــرق بدر الدجى
وناول كل هــــــلال هـــلالا(٢٣)

فتأمل قوله في نثره : « فأحضرت لهم بطيخة صفراء » .. وانظـر قـوله في شعره مكرراً نفس المعنى : « فقطـع بالبرق بدر الدجى » تدرك صحة نظرتنا السالف ذكرها آنفاً .

●—●—●

ما هو البطيخ ؟

وبوسعنا أن نستدل على أن البطيخ هو ما كان أصـــفر اللونين : الداخلي والخارجي معاً ، بما ذكره الرحالة ابن جبير في رحلته التى مر فيها على مصر ودخل الحجاز من طريق ميناء

(٢٣) بدائع البدائه ص ٣٩٥ .

هيذاب .. فانه أجاد وصف (البطيخ المكي) وفضله برائحته الزكية العبقة وطعمه اللذيذ .. قال ما نصه :

« ومن أعجب ما اختبرناه من فواكهها البطيخ والسفرجل ، وكل فواكهها عجب ، لكن للبطيخ فيها خاصة من الفضل عجيبة، وذلك لأن رائحته من أعطر الروائح وأطيبها ، يدخل به الداخل عليك ، فتجد رائحته العبقة قد سبقت اليك ، فيكاد يشغلك الاستمتاع بطيب رياه ، عن أكلك اياه ، حتى اذا ذقته خيل اليك أنه شيب بسكر مذاب ، أو بجني النحل اللباب . ولعل متصفح هذه الأحرف يظن أن في الوصف بعض غلو ، كلا لعمر الله ! انه لأكثر مما وصفت ، وفوق ما قلت»(٢٤) .

وهذا الوصف يتفق تماماً مع البطيخ الأصفر في لوني خارجه وداخله ، ولا ينطبق مطلقاً على ما يسمى في مصر حالياً باسم (البطيخ الشلين) .. ولا على غيره مما يضارعه لوناً وطعماً .

●—●—●

---

(٢٤) رحلة ابن جبير ص٩٨ ط دار صادر دار بيروت ـ بيروت وقد بحثت هذا الموضوع من جميع جوانبه فى كتابى الذى طبع بالقاهرة سنة ١٣٩٧ هـ = ١٩٧٧ م : (مع ابن جبير فى رحلته) .

البحتري يسلب بشعره البدهي درتين من المتوكل

هذا وقد يصل شعر البديهة الى مرتبة عالية من البلاغة قلما يصل اليها شعر الروية والصناعة ، وقد يصل الى درجة نفعل في النفوس فعل السحر ، فتستنزل العصم من قنن جبالها المشمخرة ، وتفتح لقائليه أبواباً مغلقة محكمة الاغلاق ، من الجوائز التى تنهال عليهم من أرباب العطايا من الأمراء والآكابر والآثرياء .. وقد ترتفع قيمة هذه الجوائز الى درجة عالية..فقد ذكر ابن ظافر بسنده المتصل الى أبي عبادة البحتري الشاعر ـ وكان الخليفة المتوكل أدخله في ندمائه ـ قال : « دخلت على المتوكل يوماً ، فرأيت في يديه «درتين» ما رأيت أشرق منهما ، ولا أنقى بياضاً ، ولا أكبر ، فأدمت النظر اليهما ، ولم أصرف طرفي عنهما..ورآني المتوكل ، فرمى الي ، التى كانت في يده اليمنى ، فقبلت الارض وجعلت آفكر فيما يضحكه طمعاً في الأخرى ، فعن لى آن قلت :

بسُرَّ مَرَّا لنا امام
تَغرِفُ من كفه البحار
خليفة يُرتَجَى ويخشى
كأنه جنة ونار
الملك فيه وفي بنيه
ما اختلف الليل والنهار

يـــــداه في الجـــــــو ضرتان
هـــذي عـــلى هـــذه تغـــار
وليس تـــأتي اليمـــين شـــيئاً
الا أتت مثـــــله اليســـــار

فرمى بالدرة التي كانت في يده اليســار ، وقال : خـذها يا عيار ! (٢٥) .

● ● ●

ومما لا شك فيه أن أبيات البحتري هذه تبرهن للقاريء على مدى مرونة الشعر العربي العمودي المقفي الموزون ، وطواعيته للافصـــاح عن أغراض الانســان ومراميه مهما تكن عميقة أو بسيطة ، بشكل منقطع النظير ، يدل على مدى سعة هذه اللغــة لمطالب الحيــاة مهما تكن متطـورة أو متغيرة في أي زمان ، وفي أي مكان .. وفي هــذا دحض لقضيتين خاسرتين . احداهمــا : دعوى جمود اللغــة العربية وعجزها وقصــورها عن التعبير عن مطالب الحضارة الحاضرة ، وثانيتهما دعوى قصور الشعر العربي الأصلي في لغتــه الأصــلية عن التعبير عن شتى مرامي الفــكر الانساني ، والحياة الانسانية المختلفة والمؤتلفة .. مما يبثه رجال الغزو الفكري من الأشواك السامة في طريق نهضة العرب والاسلام

(٢٥) بدائع البدائه ص٣٤٤ وأبيــات البحتري هــذه مثبتة في ديوانه ص ٢٣٠ ـ طبعة الجوائب بالاستانة ١٣٠٠ هـ ، وطبعة بيروت ص ٢٨٧ .

في اطار لغتهما لغة العرب السخية المرنة المعطاء الشاعرة كما يقول عباس محمود العقاد رحمه الله .

● ● ●

أصفار على اليسار

وهذا شاعر حاضر البديهة ، قوى الشاعرية ، رائع الجرس في شعره المرتجل يحكم على أدباء عصره بأنهم « أصفار على اليسار » فهو يراهم ، من عجائب زمانه ولو انبسطت يده فيهم، لردهم الى الكتاتيب .. وما ذلك الا لتفاهة أدبهم وضحالة انتاجه وخسته .. هذا الشاعر هو عقيل بن نصر الذى حضر مجلساً فيه أحداث من الكتاب ، فاختلفوا في شيء من الآداب الى أن أفضى بهم ذلك الى السباب ، فقال عقيل على البديهة ، ما يقول عنه علي بن ظافر في كتابه « بدائع البدائه » : « وأنشد فيها بعض الرؤساء ولم يعلم قائلها » :

تعس الزمان فقد أتى بعجائب
ومحا رسوم الفضل والآداب
وأتى بكتاب لو انبسطت يدى
فيهم رددتهم الى الكتاب(٢٦)

●—●—●

(٢٦) بدائع البدائه ص٣٤٩ و٣٥٠ .

والعكوك الشاعر يستولى بشعره المرتجل على ثلاثة آلاف درهم

وحينما يمتزج الأدب العربي عامة ، والشعر منه خاصة ، بفكر الأديب والشاعر امتزاجاً جيداً قائماً على أصول المعرفة والثقافة مع جرعة ذكاء واستعداد فني يصبح الأدب عامة والشعر خاصة بالنسبة لصاحبهما كالبصر للعين المبصرة ، والذوق للسان ، والسمع للأذن ، واللمس للبنان .. فهذا علي بن جبلة الأعمى العكوك لقي طاهر بن الحسين ، وهو في حراقة(٢٧) له ، فقال له طاهر : انك قد قلت في أبي دلف :

انما الدنيا أبو دلف
بين مبداه ومحتضره
فاذا ولى أبو دلف
ولت الدنيا على أثره

فاصنع لى مثلهما ، ولك بكل بيت ألف .. فصنع بديهاً :

عجبت لحراقة ابن الحسين
كيف تعوم ولا تغرق
وبحران ، من تحتها واحد
ومن فوقها آخر مطبق

---

(٢٧) الحراقة هى نوع صغير من السفن يتنزه فيه وكانت بالبصرة .

وأعجب مـــن ذاك أعـــــــوادها
وقـــد مســـها كيف لا تـــورق ؟

فأمر له بثلاثة آلاف درهم ، فأخذها وانصرف(٢٨) .

●—●—●

من روائع شعر البدائه

من بدائع البدائه التى تفضي بنا الى الاقتناع بمقدرة اللغة العربية في تكوين جيل بل أجيال من رواد الشعر البدهي القوي الذى يوصلنا بدوره الى عدم وجود أي عجز أو قصور في هـذا الشـعر العمودي أو فراغ يملؤه ما يسمى بالشـعر الحر ، وهو ليس شـعراً وليس حـراً كما قلته بصراحـة في محاضرة كنت ألقيتها في سـنة ١٣٩٥ هـ ـ بالمرناء ـ التلفـزيون السـعودي بجدة ، من تلك البدائع ما ذكر ابن ظافر في حكاية أبي تمـام ويعقوب بن الصباح الكندي فيلسوف العرب وذلك حينما تقدم أبو تمام فألقى بين يدي أحمد بن المعتصم في حياة أبيه قصيدة أولها :

ما في وقـــوفك ســـاعة من باس
تقضي رســـوم الأربـــع الأدراس

---

(٢٨) بدائع البدائه ص٢٨٩ .

فلما انتهى الى قوله :

اقـــدام عمـــرو في سماحة حاتم
في حـــلم أحنـــف في ذكاء اياس

قال له الكندي : ما زدت على أن شبهت الأمير بصـــعاليك العـــرب ومن هؤلاء الذين ذكرت ! وما قدرهم ؟!.. فأطرق أبو تمام يسيراً ثم أنشد :

لا تعجبـــوا ضربي لـــه من دونه
مثـــلا شروداً في النـــدى والبـــاس

فالله قـــد ضرب الأقـــل لنـــوره
مثـــلا من المشـــكاة والنـــبراس

فجن الحاضرون استحساناً مما أتى به(٢٩) ، واجزل أحمد صلته .. ولـــا خـــرج قال ابن الصباح : ان هذا الفتى قصـير العمر ، لأنه ينحت من قلبه .. فكان كذلك(٣٠) .

---

(٢٩) عبارة « فجن استحسانا الخ » من بعض لوازم ابن ظافر فى كتابه .. قالها عقب ايراده حوارا شعريا بين العباس بن الأحنف والدلفاء ، وقالها أيضا في موضع آخر ص٩٣ من بدائع البدائه ..

(٣٠) بدائع البدائه ص٢٩١ .

الفصل السادس

بدائه أشعار ليست في مستوى البدائع

المرء دائماً مفتون بابنه وشعره .. وحينما يصل اعجاب الشاعر بشعره الى مستوى الافتتان ينفلت منه زمام ميزانه ، فتحجب عنه رؤية نقائصه ، فيخيل اليه أن شعره يستحق منه كل الاكبار .. كما يستحق ذلك من كل الناس .

ويبدو أن علي بن ظافر ـ مع علو كعبه في الأدب وفنونه بالنسبة لعصره وما يليه صاعداً أو نازلا ـ قد وقع فى شبكة هذه (النظرة) فجر عليه ذلك أن يقدم في كتابه نماذج من شعره ما كان لها أن ترتفع الى مستوى البدائع . فان موضوعاتها تافهة لا تستحق التدوين فى الشعر ، وأسلوبها ركيك أيضاً .

وليس هذا الرأي من اطلاق القول على عواهنه ، ولا من باب التجني على أديب كبير ذي ثقافة واسعة كابن ظافر ، ولكنه ناجم من الواقع الملموس لكل ذي عينين يطالع كتابه كما سيأتي تبيانه ..

فمثلا : (الفصل الأول من الباب الرابع فيما وقع الاتفاق عليه) يوجد فيه الشيء الكثير من ذلك :

●—●—●

مباراة شعرية مخفقة

وخذ مثالا لذلك هذه الحكاية النثرية الشعرية :

قال ابن ظافر في سياق حديث له عن اتفاق خواطر الشعراء

حدثه به ابن المؤيد قال : اجتمع هذا مع جماعة من أدباء أهل الاسكندرية في بستان بعض أهلها في روض أنيق ، وبين أيديهم بركة ماء جميلة باسمة الأزاهير ، ونثر عليها بعض الحاضرين ياسميناً زان سماءها .. فتناشد ابن المؤيد والعباس بن طريف (الخراط) الاسكندري ما حبراه من الشعر البدهي في وصف ذلك المنظــــر اللطيف .. وأورد ابن ظافر ما تقاولا فيه . فسمع أبو عبد الله ابن الزين النحوي القصة ، ولم يحضر المجلس ، فقال هو أيضاً بيتي شعر في الموضوع ، وأضاف الى ذلك علي بن ظافر في كتابه (ثمرة قريحته) في هذا الشأن ...

ثم قال علي بن ظافر : وسألني الأعز رحمه الله تعالى ، أن أصنع في مثله فصنعت :

زهر الياســــمين ينثر في المــــا
ء ؟ أم الزهــــر في أديم السماء ؟!
أم همـــا مبسم شنيب شـــتيت
في رضـــاب الخـــريدة الحســناء ؟
ظـــل يحكي عقـــود در على صـــد
ر فتـــــاة في حـــــلة زرقاء !
واذا خلتـــه حبــاباً حسبت المــــا
ء طيبــــاً كالقهوة الصـــهباء(١)

فأي ابداع في هذه الصـور المتخاذلة ؟ فانه اذا صح تشبيه

---

(١) بدائع البداته ص٢٤٧ و٢٤٨ .

الزهر ـ بفتح الزاي ـ المتناثر فوق الماء ، بالنجوم الزهر ـ بضم الزاي ـ في أديم السماء ، فانه من غير الواضح أن يعاد تشبيهه ثانية بفم شنيب ، شتيت في رضاب فتاة خريدة ؟ وهل الفم في الرضاب ؟ أم الرضاب في الفم ؟.. الذى يعرف أن « الرضاب » هو « الريق » وأن « الريق » يتماوج في الفم ويحل به . وليس الفم هو الذى يتماوج في الريق أو يحله .. فالفم ظرف للريق، والريق مظروف له ..

ثم كيف يعود فيشبه الياسمين المنثور على صفحة الماء بعقود در على صدر فتاة جميلة في ثوب أزرق ؟ هل الثوب الأزرق مجسد دائماً لجمال الفتيات اذا لبسنه ؟.. فيما لو كان كثيفاً وداكن الزرقة أو خفيفها ؟

ومرة أخرى يعود فيشبه الياسمين المنثور على أديم المـاء بحباب تحسب الماء من طيبه أو طيبها أو طيبهما معاً كالقهـوة الصهباء .. فما هي هذه (المفارقة) في هذا التشبيه المتكلف ؟!

• • •

هذا وليس ما ارتجله (الخراط الاسكندري) العباس بن طريف من (الشعر) في هذا الموقف الا لون من (خرط الشعر) على المعنى الذى يقصده العوام من هذا التعبير ، (خـرطه) هكذا .. وهو ـ أي شعر (الخراط الاسكندري) ليس أعلى مكانة من شعر (ابن ظافر القاهري) .. كلاهما ساقطان في بؤرة شعر

التفاهة وليسا يدريان ...

يقول « الخراط الاسكندري » :

نثــــروا الياســـمين لمـــا جنـــوه
عبثـــا فاســـتقر فـــوق المـــاء
فحســـــبنا زهر الـــكواكب تحكي
زهـــر الأرض في أديم الســـماء(٢)

لقد أراد (الخــراط) أن يقلد البحتري في وصفه لبركة المتوكل حين قال فيها :

فحاجب الشمس أحيـــانا يضاحكها
وريق الغيث أحيـــانا يباكيهـــــا
اذا النجوم تراءت في جوانبهـــــا
ليـــلا حسبت سماء ركبت فيهـــا(٣)

ولـكنه عجز عن اللحاق بهذا الشاعر البعيد الشأو ، فأتى (بخرطه) العجيب ، وخلطه الغريب ...

مفهوم قوله : انهم نثروا الياسمين حينما اقتطفوه ، ولكنه لا يفهم لماذا جنوه عبثاً وكيف استقر فوق الماء .. من تلقاء نفسه من غير أن يكونوا هم الذين ألقوه على صفحته ؟ وليس مفهوماً كيف انقلب الوضع في البيت الثاني .. اذ شبه الشاعر زهـر

---

(٢) بدائع البدائه ص٢٤٧ .

(٣) ديوان البحترى ص١٧ طبعة الجوائب بالاستانة ١٣٠٠ هـ و ص٣٥ طبعة بيروت .

الكواكب بزهر الأرض في أديم السماء .. فما هذا الخلط والخرط .. خرط القثاء أو القتاد ؟ وخير مما قاله (الأديب الخراط) أو (الخلاط) قول زميلهم علي بن سيف الدين الحصري في نفس المعنى :

نثـــروا الياســـمين في لجـــة المـــا
ء فخلنـــا النجوم وســـط السماء
فـــكأن المـــــاء في باطن الأرض
أو الــــدر طف فـــوق المـــــاء

لقد قارب وصف البحتري في قصيدته (الهائية) التى وصف بها جمال بركة المتوكل ، فزينت هذا الجمال ، بجمال شعري خالد أخاذ .

على أن أبا عبد الله بن الزين النحـوي أحد المتحاورين في (نثير زهر الياسمين) لم يحضر المجلس ، ولكنه حينما سمع قصته تطوع فقال بديهاً أيضاً :

نثر الغـــلام الياســـمين ببـــركة
ممـــلوءة من مائهـــا المتـــدفق
فـــكأنما نثـــر النجـــوم بأسرها
في يوم صـــحو في ســـماء أزرق

ويتراءى لي أن هذا القول يخرج من نطاق الشعر بمعناه الصحيح ، الى (نظم الفقهاء) للوقائع والمسائل التى يرومون

تسهيل حفظها عن طريق ابرازها نظماً ـ على أذهان طلاب العلم .. كالألفية في النحو وابن عاشر في الفقه وغيرهما . [ابن عاشر مؤلف كتيب منظوم على بحر الرجز في الفقه المالكي] .

• • •

شعر النَّشَفة

ثم انتقل ابن ظافر الى (اتفاق الشعراء على نظم مخصوص) وأورد فيه (شعر النشفة) وما أدراك ما شعر النشفة ؟

يروي ابن ظافر : « صنع الشريف أبو المحاسن ابن الشريف ضياء الدين فضل الله بن علي بن عبد الله الحسني الراوندي القاشاني في تعريب شعر أعجمي :

اني لأحسد فيه المشط والنشفه
لذاك فاضت دموع العين مختلفه
هذا يعلق في صدغيه أنمله
وذا يقبل رجليه بألف شفه

وتسامع الناس بهذا المعنى ، فاجتمع على العمل فيه جماعة منهم شمس الدين شاد الغزنوي .. وكان حينئذ بأصبهان فقال :

اني أغار على مشط يعالجه
ونشفة حظيت من قربه زمنا

هذا يغازل صـــــدغيه وأحـــرمه
وذا يقبـــل رجليـــه ، ولست أنا

وقال أيضاً :

المشـــط والنشفة المحمود شـــأنهما
كلاهمـــا في الهوى بالسعد ملحـوظ
فتلك باللثم من رجليـــه فائـــزة
وذاك بالمسك من صـــدغيه محظوظ

وقال فخر الدين البسام :

أغار منـه عـلى مشـط ومنشـفة
حتى أغص بدفـــع فيـــه منســـجم
فـــذا يمـــد يديه نحـــو طرته
وذي يقبـــل فوها صفحة القـــدم

وقال العماد : وعملت وأنا في سن الصبا ، وشعرى حينئذ لا أرضاه :

مشط ومنشـــفة فيـــه حســـدتهما
دمعي لذا بهما فياض عارضـــه(٤)
فتلك حاظيـــة من مس أخمصـــه
وذاك مســـتغرق في مسك عارضه

فكل هذه الأبيات التى أقحمها ابن ظافر في كتابه (بدائع البدائه) لا تساوى في فن الشعر ، قلامة ظفر .. وهي تدل على

---

(٤) بدائع البدائه ص٣٤٨ و٣٤٩ .

نكسة أدبية للشعر في القرن السادس والسابع الهجريين . وهي في واقعها تشبه ما كنا نسمعه ونحن في عهد الصبا وريعان الشباب من أشعار الشعراء المتخلفين ، الذين برزت شاعريتهم الغثة في العهد الأخير من عهود الجمود الفكري والخمول الشعري .. قبيل بدء عهد الصحوة الأدبية لدينا في نثر وفي شعر .

● ● ●

صفة الموز ومنافعه

ومن شعر البدائه التافه شكلا وموضوعاً ما نظمه كل من أبي علي الحسن بن رشيق الأزدي ، وأبي عبد الله بن شرف القيرواني ـ وكانا شاعري المعز بن باديس وملازمي ديوانه ، فقال : أحب أن تضعا بين يدي قطعتين في صفة (الموز) على قافية الغين ، فصنعا حالا من غير أن يقف أحدهما على ما صنعه الآخر ، فكان الذى صنعه أبو عبد الله بن شرف القيرواني قوله :

يا حبذا الموز واسعاده
من قبل أن يمضغه الماضغ
لان الى أن لا مجس له
فالفم ملآن به فارغ
سيان قلنا : مأكل طيب
فيه والا مشرب سائغ

والذى صنعه ابن رشيق :

موز سريع أكله
من قبل مضغ الماضغ
ماكلة لآكل
ومشرب لسائغ
فالفم من لين به
ملآن مثل فارغ
يخال وهو بالغ
للحلق غير بالغ

فأمرنا للوقت أن نضع على حرف الذال ، فعملنا ولم ير أحدنا صاحبه ما عمل ، فكان ما عملته :

هل لك في موز اذا
ذقناه قلنا : حبذا
فيه شراب وغذا
يريك كالماء القذى
لو مات من تلذذا
به لقيل ذا بذا

وما عمله ابن رشيق :

لله موز لذيذ
يعيذه المستعيذ
فواكه وشراب
به يداوى الوقيذ

ترى القــــذى العــــــين' فيـــــه
كمـــــا يريهـــــا النبيـــــذ(٥)

وتعليقي على المقطوعات الأربع أنها كلهـــا من الناحيـــة الشعرية .. صفر في صفر .. فهي لا تعـدو نظماً فيــه محاولة لذكر بعض مزايا الموز ومنافعه الطبية .. أما الناحية الفنية في منظر الموز وغضاضته الخ فهي مفقودة في هذه الأبيات .

• • •

غزل خال من كل روح شعرية

أورد ابن ظافر احدى عشرة قصة تحتوي كل قصة منها على شعر غزلي أقل ما يقـــال في وصفه أنه ليس شعراً بل نظمـــاً مصطنعاً بارداً مثلجاً .

تقول احدى تلك القصص : ان جماعة من أدباء عصر الأديب الأعز أبي الفتوح بن قلاقس وعلي بن مفرج بن المنجم أرادوا أن يصنعوا شعراً في صفة غياب الشمس في المغرب وارخاء الليل سدوله على الدنيا .. وقام الشاعران المذكوران بينهم فأطرق كل واحد منهما مفكراً ، وميز ما قذفه اليه خاطره من المعاني ، فلم يكن الا كرجعة طرف حتى أنشدا .. فكان ما صنعه ابن المنجم :

---

(٥) بدائع البدائه صفحة ٢٤٠ و٢٤١ .

وعشـــاء كأنمـــا الأفـــق فيـــه
لازورد مرصـــــع بنضـــــار
قـلت : لمـا دنت لمغربهـا الشمس
ولاح الهـــــلال للنظـــــار
أقرض الشرق صنوه الغرب دينـا
رأ فأعطـاه الرهن نصـف سـوار

وكان الذى صنعه أبو الفتوح ابن قلاقس :

لا تظن الظلام قـــد أخـــذ الشم
ـس وأعطى النهـــار هذا الهـــلالا
انما الشـرق أقـرض الغـرب دينـا
رأ فأعطـــاه رهنـــه خلخـــالا

وقد عقب ابن ظافر ــ على ما يبدو من ســياق الكلام ــ القطعتين فنقدهما بقوله : (وقطعة ابن المنجم أحسن من قطعة الأعز ، لتنصيفه السوار ، وعلى كل حال فقد أبدعا ، ولم يتركا للزيادة في الاحسان موضعاً)(٦) .

●—●—●

.. وراقم هذه الحروف يعقب على كلام ابن ظافر : بأن كلتا

---

(٦) بدائع البدائه ص٢٤٤ و٢٤٥ .

القطعتين لا خير فيهما ولا شعر ، فهما عبارة عن نظم سمج ركيك لخيال شبه مريض لم يأت القاريء بشيء جديد ولا بشيء يفيد ، ولا بشيء ذي بال أو جميل .

وبقية القصص العشر هي من هذا القبيل .. والكتاب يقرأ من عنوانه .. على أننا سنتحاشى مظنتك بنا في أننا أسرفنا في النقد ، وبالغنا فيه حيال هـذه المختـارات من شـعر البـدائه والارتجال .. فنقدم لك فيما يلي دليلا آخر ناطقاً وشاهداً على ما عرضناه عليك آنفاً في هذا الموضوع .

وذلك أن المؤلف علي بن ظافر ، قـد تحـركت شـاعريته الكامنة في هذا اللون من شعر البدائه فذكر لنا أنه قد جرى له مثـل ذلك مع القاضي الأعـز أبي الحسن عـلي بن المـؤيد .. رحمه الله .. فقد مرا عشية على بستان مجاور للنيل فرأيا فيه بئراً فيـه ـ فيها ـ عليهـا دولابان يتجاذبان ، وهمـا يدوران ويفيضان ماء أغزر من دموع العشاق ـ كما يقول ـ وهما يئنان أنين المشتاقين ، وقد ازدهى عليهما الروض وازدهر ، وجرت أنامل النسيم على ميادين الزهر ، فاستحوذ ذلك الموضع عليهمـا وملأ أبصارهما ُحسناً ، ومالا الى الدولابين ، وتناشدا ما وصفت به الدواليب من الأشعار ، وأفضى بهما الحديث الى ذكر الأعمى التطيلي وقوله في أسد نحاس يقذف الماء :

أسـد ولـو أني ُأنا
قشُـه ُ الحسـاب لقلت صـخره

فـــــكأنه أســـــد الســـــما

ء يمــُـــج من فيـــــه المجـــــره

فقال له أبو العز : يتولد من هذا معنى في الدولاب ما يأخذ بمجامع المسامع ، فتأمل ابن ظافر قوله فأعجبه ، وأخذ كل منهما ينظم ما جاش به خاطره ، ليولد من البيتين ما يضارعهما من بنات الشعر فلم يكن الا كنقر العصفور ، الخائف من الناطور ، حتى أكمل كل منهما (عمليته التوليـــــدية) من غير أن يقف أحدهما على ما (ولده) الآخر .. فكان الذى قاله أبو العز :

حبـــذا ســـــاعة المجـــــرة والدو

لاب يهـــــدي الى النفـــوس مسره

أدهم لا يزال يعـــــدو ولـــــكن

ليس يعـــدو مـــكانه قـــدر ذره

ذو عيون من القـــواديس تبـــدي

كل عـــين من فائض المـــاء عبره

فـــــلك دائر يرينـــــا نجـــــوماً

كل نجـــم منهـــــا يرينـــــا المجره

وكان الذى قاله علي بن ظافر :

ودولاب يئـــــن أنـــــين ثـــــكلى

ولا فقـــــدا شـــــكاه ولا مضره

ترى الأزهـــار في ضـــــحك اذا ما
بكي بدمـــوع عـــين منـــــه ثره
حكى فلـــكا تـــدور به نجـــوم
تـــــؤثر في ســـرائرنا المسره
يظـــل النجم يغـــرب بعـــد نجم
ويطلع بعد ما تجـــــرى المجره(٧)

●—●—●

والذي يبـــدو من تأمل المقطوعتـــين وثالثتهما الأولى أن ما نظمن فيه كلهن لا يستحق عناية شعرية كهذه ، وأن ما قالاه فيه بديهة لا يستحق أن يعد من شعر البدائه الراقي .. فهو في مستوى منخفض لا يرتفع رأسه الضئيل الى أي شموخ أو علو فى سماء الأدب الذى يعتز به قائله ، والشعر الذى يباهي به ناظمه .. ولكن المرء بابنه وبشعره مفتون ، كما يقول المثل السائر من قديم .

● ● ●

شـــعر البغـــلة

ومن البـــدائه غير البـــدائع ما تحدث به لنا ابن ظافر عن الأديب راجـــح بن اسماعيل الحلي ، قال : خـــرجنا مع مهـــذب الدين أبي الحسن علي بن نظيف أيام كتابته للملك المعز اسحاق

---

(٧) بدائع البدائه ص٢٤٦ و ٢٤٧ .

ابن الملك الناصر ـ رحمه الله تعالى ـ الى الأهرام للتنزه ، ومعنا الأديب بهاء الدين الساعاتي والجمال ابن التاج البغدادي والمهذب بن الخيمي والأوحد المعروف بالواسطي .. فاتفق أن كبت به بغلته ، ثم وثبت ، ثم رفعت يديها .. فتعاطينا القول في ذلك .. فبدر بهاء الدين ابن الساعاتي فقال :

قيـــل مادت من تحت ذا الســـيد
الأرض ولم تأتنـــا له بمثـــال
هـــو طـــود النهى ومن أعجب الأ
شـــياء أرض تميـــد تحت الجبـــال

وقال ابن التاج :

جلست بغـــلة الأمـــين ترينـــا
صـــــدق حس كأنه الهـــامُ
أظهرت ميزة عـــلى النـــوع اذ أصـــ
ـــبح في الحســـن ذاعلا لا يـــرامُ
نحن في خـــــدمة قيـــام لديه
ثم بغلاتنـــا لديـــه قيـــامُ

وقال الواسطي :

لم تكب بغلتـــك الخضراء من خـــور
يا من هو اليوم للاســـلام مســـعده
لـــكنما الأرض مادت تحتهـــا طربا
اذ شرفت بك يا من طـــاب محتـــده

وقال ابن الخيمي :

أقسمت بغلة الرئيس المفدى
حين حطت لعجزها منه صدرا
انما رفعت يديها قنوتا
بعد أن قبلت ثرى الأرض عشرا
اذ غدت من حجاه حاملة طو
دأ ومن جود كفه العذب بحرا(٨)

قال : (القائل الأديب راجح بن اسماعيل الحلي خامس الأدباء الخمسة المتبارين في وصف كبو البغلة وملابساته الفنية المبتكرة) :

وحسام ملك يستضاء برأيه
ويفل حد النائبات بحده
لم تكب بغلته لخون قوائم
تطأ الصفا فترض صفحة صلده
لكنها حملت مشرع سؤدد
بذ الأكارم فى امامة مجده
سجدت وقد ظلت صفوف وفوده
من خلفه يتلون آية حمده

وهكذا اعتبر هذا الشعر العجيب (بغلة السيد) امامة ، ومأموموها هم الوافدون على صاحبها الذين تلوا بعد سجودها آية حمده .

---

(٨) بدائع البدائه ص٢٦٣ و ٢٦٤ .

وتعقب ابن ظافر القطعة الأخيرة لراجح بن اسماعيل الحلي فقال : (قال علي بن ظافر : وقد رأيت هذه القطعة التى نسبها الحلي لنفسه في ديوان ابن الساعاتي . وكان الحلي مع جودته كثير الاغارة عليه)(٩) .

● ● ●

وأقول تعقيباً على القطع الخمس المذكورة آنفاً : انها كلها تعتبر من نوع (الخربشة) الشعرية المصطنعة التى لا قيمة لها من الناحية الأدبية الفنية .. فلا يحق لها بهذا الاعتبار أن توضع بين صفوف شعر بدائع البدائه بحال من الأحوال . ففي بيتي ابن الساعاتي : أن الأرض مادت تحت السيد ، وأن من أعجب الأشياء أن تميد الأرض تحت الجبال .. ولم تمد الأرض ولم تكن البغلة أرضاً ، وتشبيهها فى كبوها أو حملها بالأرض غير وارد ولا مقبول ، وانما هي قد عثرت ثم قامت من عثرتها كأي حيوان يعثر ثم ينهض .. والموضوع من حيث هو سخيف في العرض والتقدير والتصوير ...

●—●—●

وفي شعر الواسطي تكرر نفس المعنى ولكن بشكل آخر : مَيدَانُ الأرض من تحت صاحب البغلة طرباً من تشريفها براكبها الذي طاب محتده .

---

(٩) بدائع البدائه ص ٢٦٤ .

وزادت الأبيات الثلاثة التى وضعها ابن الخيمي ــ الطينة بلة .. فانه جعل بغلة الرئيس متكلمة واعية اذ لقد أقسمت صادقة في قسمها حين حطت صدرها عجزاً عن حمله .. بأنها انما رفعت يديها الى فوق لأجل أن تدعو دعاء القنوت الذى يستحب فيه ــ عند الشافعية ــ رفع اليدين للقانت المصلي .. وكان ذلك منها بعد أن قبلت ثرى الأرض عشر مرات ، والسبب الذي حملها على هذا كله هو أنها أصبحت من ضخامة عقل ممتطيها ، مثقلة مرهقة رازحة تحت أعبائه الثقال . لأنها ــ والحق يقال ــ انما تحمل طوداً في حجاه ، وبحر جود في كفه .. فحق لها ــ والحال هذه ــ أن تكبو وأن تعثر ..

• • •

هذا وقد قدم الأديب راجح بن اسماعيل الحلي مديح (حسام الملك) كتمهيد للوصف .. وله الحق في ذلك على ما يراه ، فحسام الدين هذا يستضاء برأيه ، ويفل النائبات صارم مجده .. ومن هذا المدخل الجديد تسربت بداهة شاعريته ، أو شاعرية بداهته الى وصف وضع البغلة المحظوظة بابراز عذرها الممدوح المحمود فيما حدث لها من كبوة وعثرة ، فانها فعلت ذلك لا لخيانة قوائمها الشديدة القوى والاحتمال ، فان من قوة قوائمها المعروفة أنها اذا وطئت الحجر الصلد هشمته .. وفتتته تفتيتاً .. وحقيقة الأمر الذي ألزمها هذا الكبو الغريب بالنسبة لها بالذات ، ناشئة

من أنها حملت ذلك الذى يشرع قوانين المجد الأرفع ، وغالب الأكارم بمجده وجوده ، فسجدت بغلته ، ولما سجدت (وهذا نوع غريب من تقديس الحيـوان الأعجم للانســان) صارت صفوف قصـاده من النـاس تتلو آية حمـده بعد سجود بغلته الواعيـة الرشيدة ...

فأي ابداع في هذه البدائه المتفاوتة في التقليد والتكلف في معرض الملق والتفاهات الرائجـة اذ ذاك في سوق الابتـذال والخنوع ..

لا جرم أن هذا اللون من الشعر في كتاب (بدائع البدائه) على جلالة قدر مؤلفه وكون الكتاب من عيون الأدب العـربي ، ـ لا جرم أن هذا الشعر يصح أن يوضع في صف (شعر الدعاية) الرخيص .. وكل هم الشاعر هنا تزجية الفراغ واشباع نهمه في التزلف والملق لـكسب المنـافع وجر الفوائد . ونيـل الشـهرة المنشودة ...



الفصل السابع

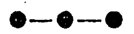
لقطات متناثرة من الكتاب

ليس كتاب « بدائع البدائه » مقصوراً على سرد هذا الشعر البدهي والمرتجل الذى جعله مؤلفه موضوع كتابه .. فضمن هذا السرد حوى الكتاب ألواناً من المعارف التى للشعر البدهي علاقة ما بها .

وفي خــــلال دراستنا لنصوصه تمكنا من أن نلتقط بعض جواهر ذلك (النثار) .. وتسجيله في هذا الكتيب ، وفي هـذا الفصل بالذات .

ونذكر لك أولا ، وبالمناسبة ـ ما وقفنا عليه من حديث اختراع « الانسان الآلى » الذى هو أعجوبة الزمان والذى لم يصل بعد الى المستوى المنشود تماماً ، والذى أصبح بنو العصر الحاضر على مشارف الحاجة الملحة اليه جداً بسبب ندرة العمال بالنسبة لاحتياجات بني العصر ومطالبهم الفائقة المتصاعدة .

ولقد جاء في نصوص الكتاب نص يفيدنا بدون التواء أو محاباة بأن « الانسان العربي » في اطار حضارته الاسلامية قد قام باختراع هذا « الانسان الآلى » فعلا ، واستخدمه في بعض مرافق حياته فقام بالمهمة الموكولة له ، وقد جُرب فنجحت تجربته .. وهذا ما ستقرؤه في هذا الفصل بالذات ان شاء الله .



ابنة تفوق والدها الشاعر الفحل في شعر البداهة والارتجال

يحدثنا ابن ظافر بقصة تلك الابنة الشاعرة بنت الشاعر التى تفوقت على أبيها في ميدان الشعر المرتجل والبدهي تفوقاً بارزاً .. فلقد جلس حسان بن ثابت رضي الله عنه ليلة مع ابنته ليلى ، فجعل يريد شعراً يقوله ، فقال :

متـــاريك أدبار الأمور اذا اعـــترت
تركنا الفـــروع واجتثثنا أصـــولها

ثم أجبل : (يريد الزيادة فلم يقدر) . فقالت له ابنته : كأنك قد أجبلت ؟ فقال : نعم .. قالت : أفأجيز عنك ؟ قال : نعم ! فقالت :

مقـاويل بالمعروف خرس عن الخنـــا
كـــرام يعـــاطون العشـــيرة ســـولها

فحمي حسان ، فقال :

وقافيـــة مثـــل الســـنان رزينـــة
تنـــاولت من جـــو السماء نزولها

فقالت :

براها الذى لا ينطلق الشـــعر عنـــده
ويعجـــز عن أمثالهـــا أن يقولهـــا

فقال : والله لا قلت بيت شعر ما دمت حيـة ! قالت : أو أؤمنك ؟ قال : فذاك ، فأنت آمن أن أقول بيت شعر ما بقيت!(١)

●—●—●

كتاب « الحديقة » الحديث ..
قبله كتاب « الحديقة » القديم

اذا كنت واسع الاطلاع فانك واجد أن الكثير من أسماء الكتب الحديثة سبق أن سمى بها الأقـدمون كتبهم ، بشكل أو بآخر ، فليست أسماء كثير من كتبنا الجديدة بداخلة في اطار قول ذلك الشاعر : « كم ترك الأول للآخر » ومثلها في هذا مثل أسماء الناس أنفسهم ..

وكنت ـ وربما كثيرون مثلي ـ أعتقد أن كتاب محب الدين الخطيب الصغير الحجم « الحديقة » .. هو وحيد الدهر في اتخاذ هذا الاسم الجميل الوجيز المعبر خير تعبير عن المرام الموضوع له .. ولكن عندما طالعت كتاب « بدائع البدائه » وقفت على أنه اسم وضع علماً في القديم على أحد كتب الأدب . فالسيد محب الدين الخطيب اما أن يكون اذن مقتبساً أو مستعيراً لهذا الاسم اذا علم

---

(١) بدائع البدائه ص١٩١ والاجبال ـ لغة هو : توقف الشاعر عن قول الشعر .

بوجود اسم سابق له فيما مضى . أو يكون ذلك من باب توارد الخواطر كما يقولون .. وعلى كل فالاسم قد ثبت أنه مسبوق اليه بدون ارتياب .

● ● ●

تمليط ..

.. كان « أبو الصلت أمية بن عبد العزيز » تحدث – على ما يروي لنا علي بن ظافر – في كتابه المسمى « الحديقة » قال : أخبرني محمد بن حبيب القلانسي الشاعر ، قال : حضرنا ليلة بمجلس السلطان أبي يحيى تميم بن المعز بن باديس ، فالتفت حميد بن سعيد الشاعر الى مملوكين من مماليكه قد جمعا بين رأسيهما متناجيين فقال لى : مَلِّط : (٢)

أنظر الى اللمتين قد حكتا :

فقلت : جنحي ظلام على صباحين

فقال : فاعجب لغصنين كلما انعطفا

فقلت : ماسا من اللين في وشاحين

فقال : ظبيان يحمي حماهما أسد

فقلت : لولاه كانا لنا متاحين

---

(٢) التمليط فى مصطلح شعراء البديهة والارتجال هو كما عرفه ابن ظافر : « أن يجتمع شاعران فصاعداً على تجريد أفكارهم وتجريب خواطرهم في العمل – أي في عمل الشعر بديهة في معنى واحد ص١٦٧ .

فقال : فلو تدانيت متهمبا لدنت
فقلت : مني في الحين أسهم الحين(٣)

● ● ●

الطارمة

وردت «الطارمة» في حكاية مطولة استغرقت من المطبوعة المحققة احدى عشرة صفحة ، ويبدو أنها قد استهوت عاطفة ابن ظافر فنقلها من كتاب « اليتيمة » للثعالبي ، وقد رواها في موضوع «اجازة أكثر من بيت بأكثر من بيت» من حكاية أبي الفرج الببغاء في دير مران . وأكثر ما ورد في هذه الحكاية ، من النثر المرسل ، وأقله سجع ، وهي قصة غارقة في باب الغزل الذى كان مستحسناً في تلك القرون .. وشعرها أكثره بين بين ، ويكفيه أن يكون « مقبولا » .. لما توشحت به أبياته من مظاهر تكلف التشبيهات، وأقله قوي النسج ، لطيف الحوك في الأسلوب .. ومن القسم الأول قول أبي الفرج من قصيدة رائية :

جرت فيه أفراس الصبا بارتياحنا
الى دير ُمران المعظم والعمر

فان رائحة التكلف تنبعث قوية جلية في قوله :

جرت فيه أفراس الصبا بارتياحنا
الى دير ُمران المعظم والعمر

---

(٣) بدائع البدائه ص١٧٨ .

والقصة في حد ذاتها يمكن أن تعد من الأدب المكشوف بعض الشيء .

وقـد استرعى نظري فيها ذكرها للطارمة في فقرات هي : (فاذا أنا ببيت فضي الحيطان ، رخامي الأركان ، يضم طارمة خيش مفروشة بحصير مستعمل) . واذن فالطارمة كلمة مألوفة الاستعمال في القرون الخـوالى .. ولم ترد بهـذه الصيغة ولا بالمعنى في « القاموس المحيط » للفيروز آبادى في مادة (طرم) .. وهي في تهميش محقق الطبعة : « بيت كالقبة » وهي في نجـد « الطرمة » .. التي هي الغرفة العلوية المطلة رأساً على خارج باب الدار من فوقه مباشرة ، ويستطيع من بداخلها أن يعرف الطـارق ، فيـدخله اذا شاء ، ويدعه يعود اذا أراد .. وهي « الطيرمة » بزيادة ياء ساكنة بعد الطاء المفتوحة ، في لهجة أهل الحجاز .. ويقصدون بها الغرفة التي تبنى فوق أسطحة المنازل لتـكون مستقراً لأفرشتهم التي كانوا يفرشونها وأغطيتهم التي كانوا يتغطون بها اذا ما ناموا في تلك الأسطحة صيفاً ..

ومن هذه التعريفات يبدو لنا أن (الطارمة) قد حدث بكل من صيغتها ومعناها ــ تغير شامل .. تنقلت في أهابه صيغتها وما تحمله من معان في متلاحق الأجيال والقرون حتى وصلت الينا في هذه المملكة تحمل معنيين مختلفين في الكنه .. فهي في نجد بمعنى، وهي في الحجاز بمعنى آخر، والمعنيان متقاربان في المبنى والمعنى..

● ● ●

اسم عربي قديم

سمى بعض السعوديين المعاصرين بعض أبنائهم بهذا الاسم ، ضمن اطار حركة التغير في (الأسماء) التى دخلت هذه البلاد بعد انحسار عهد العثمانيين ، وعقب اتصال بعضهم بالخارج .. سمى بعضهم ابنه (مرهفا) وسمعتُ أناساً في جُدة ينكرون هذه التسمية ويعتبرونها بدعة جديدة من هذه البدع التى شملت أسماء البنين والبنات .. فبعض الآباء والأمهات يؤثرون تسمية أبنائهم وبناتهم بأسماء عربية خالصة قديمة جداً ، كنزار ، وعدنان ، وقحطان ، ويعرب ، واياس ، وزهير ، وبعضهم يؤثرون لأولادهم أسماء بعضها عربي مبتكر ، وبعضها ذو مساس بالأسماء الافرنجية ، وقد حسب المتحدثون الناقدون اسم (مرهف) من نوع الأسماء المخترعة حديثاً . وقد طالعت فيما بعد كتاب «بدائع البدائه » فعثرت فيه على أن الأمير الشجاع أسامة بن منقذ من أهل القرن السادس الهجري ، سمى ابنه (مرهفا) .. قال علي ابن ظافر : (أخبرني الأمير الأجل عضد الدين مرهف بن أسامة ابن منقذ) الخ(٣) .

وصيغة (مرهف) لغة مأخوذة اما من : (رهف) السيف كمنع : رقفه كأرهفه ، أو من (رهف) ككرم رهافة ورهفاً

---

(٣) بدائع البدائه ص٢٥٠ .

محركة (دق ولطف) . وكلا المعنيين متقاربان . يصح اندماجهما في مادة واحدة أصلية .

• • •

الفول .. مذموماً وممدوحاً

جاء ذلك شعراً في كتاب بدائع البدائه .. فبعضهم مدحه وأعلى شأنه بين البقول ، وبعضهم حط من قدره وأزرى به حتى جعله من علف البهائم .. وليس من ريب في أن هذا من شأن « البيان العربي » القدير الذى بوسعه أن يعرض عليك صفات المتحدث عنه أياً كان : من ناحيته المشرقة الوضيئة فاذا الاشراق والبهاء يكللانه ، كما ان بوسعه في نفس الوقت أن يقتحم أغوار طبيعته الغريزية أو المكتسبة فيستخرج لك منها فرثها وغثاءها وينشره بين يديك فاذا أنت متقزز نافر كاره لهذا الذى يصفه لك بالنعوت الرديئة المنكرة .. والبيان العربي في كل ذلك صادق كل الصدق ، ناطق بالحقيقة الواقعية بدون تعمل أو تصنع .. وقد صور لنا شاعر عربي قديم خير تصوير هذه « الظاهرة » من ظواهر بياننا العربي العالمي العريق الدقيق في بيتين هما :

تقول : هذا مُجاج النحل تمدحه
وان ذممت فقل قيء الزنابير
مدح وذم وذات الشيء واحدة
« ان البيان يُرى الظلماء كالنور »

وقول هذا الشاعر الكبير : ان البيان يرى الظلماء كالنور .. هو في منتهى الدقة في التصوير . فالبيان العربي كشاف للمحاسن والمساويء معاً ، وهو مثل المصورة ، الجيدة التى تحوي ميزات كثيرة من أهمها تسجيل دقائق كيان المصور من جميع أبعاده .. ونواحي تكوينه الخفية والجلية .

والحق يقال ان هـذا الشـاعر كان مقتبسا للمعنى وليس مؤسساً له .. ان أساس هذا المعنى الحكيم الرائع يكمن في الحديث النبوي الصحيح : (ان من البيان لسحرا وان من الشعر لحكما) وقد قاله المصطفى صلوات الله وسلامه عليـــه حينما استمع الى بعضهم وهو يضفي مديحاً عاطراً على أحد الجلوس ، ثم سرعان ما قلب الجبة فأمطره ذماً .. وكان مديحه له صائباً لأنه اتجه به نحو ابراز كيانه من أحد أبعاده الوضيئة .. كما أن ذمه صحيح لأنه اتجه به الى ناحية أخرى من أخلاقه وأوضاعه الرديئة .

قدمنا لك ما سبق ذكره لندخل من بابه الى حكاية « الفول » التى أوردها ابن ظافر في كتابه .. تقول الحـكاية : ان النـاصر عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخـل ، جلس في جماعة من خواصـــه ، ومعهم أبو القاسم : ('لب) .. وكان يعده للمجون والتطايب ــ أي المزاح ــ فقال له : 'أهج' عبد الملك بن جهور أحد وزرائه .. فقال : أخافه .. فقال لعبد الملك : فاهجه أنت ! فقال : أخاف

على عرضي منه .. فقال : أهجوه أنا وأنت . ثم صنع :

لب أبو القاسم ذو لحية
طويلة في طولها ميل

فقال عبد الملك :

وعرضها ميلان ان كسرت
والعقل مأفوك ومخبول

فقال الناصر : للب : أهجه فقد هجاك .. فقال بديهاً :

قال أمين الله في عصرنا
لى لحية أزرى بها الطول
وابن جهير ، قال قول الذي
مأكوله القرضيل والفول
لولا حيائي من امام الهدى
نخست بالمنخس شو ...

ثم سكت .. فقال الناصر : هات تمام البيت ، فامتنع ، فقال له : « قولو » (يعني تمام البيت) .. قالها الناصر مسترسلا غير متحفظ من زيادة الواو ، وابدال الهاء واواً ، اذ صوابه (قله) . على حكم المشي مع الطبع والراحة عن التكلف .. فقال « لب » : يا مولانا ! أنت هجوته .. ففطن الناصر والحاضرون وضحكوا .. وأمر له بجائزة .

وقد فسر ابن ظافر «القرضيل» الذي جاء في هجاء ابن جهور بأنه شوك له ورق عريض تأكله البقر ، وقد قرن القرضيل

بالفول بأنه مأكول الوزير ابن جهور فهو اذن معدود من البهائم .. وفسر (شو) بأنها كلمة رومية و (قولو) كذلك ، وهما بمعنى مكاني الحدث(٤) .

وهكذا نرى « الفول » يذكره الشاعر 'لب في معرض الذم والهجاء ..

ولكن هذا « الفُول' » نفسه يصبح في نظر شاعر آخر موطن مديح وثناء واستحسان .. اذ يجعله من جملة « اللآليء المشرقة الرفيعة المقدار في نظر الانسان .. فهو در الرياض المنتخب للمديح ، وهو أكل الظرفاء وطعم الأدباء ، وكل من له ظرف وذوق سليم يهوى الفول ، وهو « حسب رأي الشاعر الآخر (ابن شهيد) من المنى وكفى » :

.. وكان الشاعر ابن شهيد هذا ، ذات يوم مع جماعة من الأدباء عند القاضي ابن ذكوان ، فجيء بباكورة باقلاء ، فقال ابن ذكوان : لا ينفرد بها الا من وصفها .. فقال ابن شهيد : أنا لها .. وارتجل :

ان لآليك أحدثت صلفا
فاتخذت من 'زمرد صدفا
تسكن ضراتها البحور وذي
تسكن للحسن روضة أنفا

(٤) بدائع البدائه ص١٩٥ و١٩٦ .

هامت بلحف الجبـــال فاتخـــذت
من ســـندس في جنانهـــا لُحفا
شـــبهتها بالثغـــور في لطف
حسـبك هـــذا من رمز من لطفا
حاز ابن ذكـــوان في مـــكارمه
حـــدود كعـــب وما به وُصفا
قـــدم در الرياض منتخبـــا
منـــه لأفـــراس مدحـــه علفا
أكـــل ظـــريف وطعـــم ذي أدب
والفـــول يهـــواه كل من ظرفا
وخص فيـــه شـــيخ له حســـب
وكان حســـبي من المنى وكفى(٥)

وهكذا رأينا الشعر يمعن هناك في ذم الفول حتى يجعله أكل البقر كالقرضيل ، ورأيناه هنا وهو ممدوح محبب للشعر فهو أكل الظرفاء وطعم الأدباء . ولله في خلقه شؤون ..

كافور الأخشيدي في صورته الحقيقية

شوهت قصائد المتنبي وجه سيرة كافور الأخشيدي ، فتركته أشبه بالحبالى في الضخامة والحيرة في تصرفاته ، وفي كربه وبرمه بالحياة ، وجعلته جهولا متسلطاً لا يدري ما هو الاتجاه الحسن ،

---

(٥) بدائع البدائه ص٣٠٢ .

ولا التوجيه المستحسن . وجعلته أبكم صموتاً لا يعي ما يقول : ويقول ما لا يعي .. الى آخر تلك الصورة البشعة الكاريكاتورية التي ركز المتنبي رسمها في اطار سميك من الهزل والهجاء المحض المشوب فيه نار الشتم ، بزمهرير الاستخذاء وخريف اللؤم .

تلك هي الصورة المهزوزة ـ الكاريكاتورية ـ التي خلقتها أشعار المتنبي لشخصية كافور في أذهان قراء شعره المكين الآسر المتين ، ذي التأثير القوى الساحر ..

أما صورة كافور الحقيقية التي خلفها كتاب السير والمؤرخون فهي على العكس من تصوير المتنبي له .. الذي بني على الهـزء به ونفي كل فضيلة عنه وألصق كل رذيلة به .. ترسمه ريشة المؤرخين على أنه حاكم ذكي ألمعي وعالم أديب ذو معارف واسعة وذو أدب نفسي عميق ، وذوق سليم ، ومكانة في نفوس شعبه عظيمة ..

والقصة التالية التي رواها ابن ظافر تؤيد هذا المفهوم كل التأييـد : فقـد ورد في « بدائع البدائه » لعلي بن ظافر أن أبا اسحاق النجيرمي جلس عند كافور الأخشيدي ، فدخل عليـه أبو الفضل ابن عياش فقال : « أدام الله أيام مولانا » وكسر ميم « أيام » فتبسم كافـور الى أبي اسـحاق ، ففطن لذلك ، وقال مرتجلا :

لا غرو . ان لحن الداعي لسيدنا
وغص من دهش بالريق والبهر
فمثل سيدنا حالت مهابته
بين الأديب وبين القول بالحصر
وان يكن خفض « الأيام » من دهش
في موضع النصب ، لا من قلة البصر
فقد تفاءلتُ من هذا لسيدنا
والفأل مأثوره عن سيد البشر
بأن أيامه خفض بلا نصب
وأن دولته صفو بلا كدر

فأمر له بثلاثمائة دينار ، وللنجيرمي بمائتين(٦) .

● ● ●

الانسان الآلى

من ذا يستطيع قبل وقوفنا على الكثير من تراث أسلافنا الأدبي والعلمي أن يزعم أو يدعي في كتاب مطبوع أو صحيفة سيارة أن « الانسان الآلى المعروف » بالروبوت هو في أصله وواقعه واستخدامه عربي المولد والمنشأ والاختراع ؟.. وليس بغربي من هذا كله في قبيل ولا في دبير ..

---

(٦) بدائع البدائه ص٣٥١ و ٣٥٢ .

ان تراثنا الأدبي احتفظ لنا بجوهر هذه الحقيقة بين قماطره حتى رأيناها عياناً فيه بأخرة .. وبعد ايذان شمس الحضارة الغربية بالأفول .. ففي كتاب بدائع البدائه هذا النص المسلسلة رواته :

« أنبأني الشيخان تاج الدين بن اليمن الكندي ، وقاضي القضاة جمال الدين أبو القاسم ابن الحرستاني اجازة ، عن الحافظ أبي القاسم ابن‌عساكر ، قال : وقد ذكر ابراهيم بن‌سعيد الاسكندري المعروف بالسديد ، وذكره لنا أبو عبد الله بن المحلي فيمن لقيه من أهل الأدب ، قال : كان صاعد قد عمل شخص حديد ينفخ النار ساعات ، فأراد السديد اختباره كما يجب ، فأطفأ النار ، فقال صاعد بديهاً :

نار تيممها السديد فردها
برداً وكانت قبل وهي جحيم
فكأنما المفتاح آية ربه
وكأن ابراهيم ، ابراهيم(٧)

● ● ●

« الزركالش » و « كان وكان »

« الزركالش » و « كان وكان » ـ نوع قديم من الشعر

---

(٧) بدائع البدائه ص٣٨٢ .

العامي الملحون كان معروفاً قديماً بمصر بالاسم الأول ، وفي العراق بالاسم الثاني .. ومنه قول الشاعر :

النـــار بين ضـــلوعي
ونا غـــريق في دمـــوعي
كَنِيّ فتيـــله قنـــديل
أمـــوت غـــريق وحـــريق

وقد أخبر ابن ظافر بعض أصحابه من المصريين بأن بعض جلساء الصالح بن رزيك أنشد بمجلسه بيتاً من الأوزان التي يسميها المصريون : الزركالش ، ويسميها العراقيون كان وكان (البيتين السابقين : النار بين ضلوعي الخ) .. وكان عنده القاضي الجليس أبو المعالي عبد العزيز بن الحباب ، والقاضي المهذب ابن الزبير ، فتقدم اليهما بنظم معناه ، فصنعا بديهاً .. كل واحد منهما ما أورده ابن ظافر في كتابه(٨) .

● ● ●

غـواة الأدب

« غواة الأدب » .. هذه الصيغة كنا نحسب أنها من «مولدات الأدب الحديث » .. ولكننا لما اطلعنا على ما قاله علي بن ظافر في كتابه بالقرن السادس الهجري عرفنا أنها قديمة ومما ولدته الحضارة العربية القديمة .. « قال علي بن ظافر : 'روي أن الأعز أبا الفتوح ابن قلاقس ، و « 'نشو الملك » علي بن مفرج بن

(٨) بدائع البداله ص٢٤٩ .

المنجم اجتمعا في منار الجامع ليلة فطر ، ظهر بها الهلال للعيون، وبرز في صفحة بحر النيل كالنون ، ومعهما جماعة من « غواة » الأدب الذين ينسلون من كل حدب » الخ .

فلنتأمل كيف استعمل ابن ظافر عبارة : (غواة الأدب) في المعنى الذى يستعملها فيه أدبنا اليوم .. ولنعرف أنها قديمة وليست من بنات عصرنا الحالى كما كنا نتخيل ..

● ● ●

الشحنة

والشحنة : كما ورد في «القاموس المحيط» وغيره من المراجع اللغوية هي : (بالكسر) : ما يقام(٩) للدواب من العلف الذى يكفيها يومها وليلتها .. وفي البلد (من فيه الكفاية لضبطها من جهة السلطان) (مادة شحن) وكان هذا اللقب مستعملا في القرن السادس والسابع لمن أصبح حديثاً يسمى « مدير الشرطة العام » أو « مدير الأمن العام » .. وربما كان مأخذ هذا اللقب لغوياً من (الشحنة) بمعنى ما يقام(٩) للدواب من العلف الذي يكفيها يومها وليلتها .. اذ معنى ذلك تأمينها من الجوع الذى اذا

---

(٩) بدائع البدائه ص ٢٥٨ .
وربما كانت صحة العبارة : « ما يقدم » .. والله أعلم .

تركت معه تختل موازين قواها المادية والمعنوية وتنهار .. فمدير الأمن العام .. ولنسمه الآن هكذا : مهمته ضبط موازين أمور البلاد اذا كان معهوداً اليه تحقيق أمن البلاد ، أي موازين أمور البلاد اذا كان عهد اليه تحقيق أمن بلاد عديدة وضبطها من التفكك والاختلال الأمني الذي عليه عماد حياة البلاد وازدهارها.

●—●—●

وقد كنت قرأت هذه الصيغة في كتاب « رحلة ابن جبير » وغيره ، وكنت أبحث عن مدى بقاء هذه الصيغة بمعناها المذكور، فيما بعد ذلك وبخاصة في وقتنا الحاضر وما قبله .. فما عثرت في الكتب الحديثة على مدير شرطة أو أمن عام في أي بلد عربي اسلامي أو بلدان عربية اسلامية يلقب فيما بعد بهذا اللقب .. فعلمت أن « الانقراض » كما يعرو البشر والحيوان كذلك يعترض الكلمات اللغوية فتستعمل كلمة ما أو كلمات ما في زمن ثم يعروها الانقراض فتبيد من الوجود ، وتصبح « أثرية » محفوظة في متاحف المراجع اللغوية التى تحرص على بقاء مومياها محنطة في متاحفها أبد الدهر ، فلربما يحين وقت تنال (البعث) فيه أو لربما تجيء في مرجع قديم فيجدها باحث في تاريخ الأدب أو اللغة في مكانها من المتحف اللغوي .. فيعرف بمعناها الجيل الحاضر والأجيال المقبلة .

ومن المؤكد أن صيغة « الشحنة » كانت مألوفة الاستخدام

في معنى « مدير الشرطة » فقد روى ابن ظافر عن أبي الفرج « أن شحنة بغداد كسر نبيذاً كثيراً حتى ملأ الطريق ، فمر به ـ أي بالنبيذ المكسور ـ بكر بن خارجة ، فلما رآه جلس يبكي، فمر عليه بعض أصحابه فسأله عن سبب بكائه ، فقال بديهاً :

يا لقــومي لمــا جنى السلطـــان
لم يكـــن للـــذى أهان هـــوان
صـــبها في الطريق من حلب الـــكر
م عقـــاراً كأنهـــا زعفـــران
صـــبها في مـــكان ســـوء لقـــد أد
رك الســـعود ذلك المـــكان(١٠)

وقد سبق لنا أن أشرنا الى أن ابن جبير استعملها في هـذا المعنى برحلته المطبوعة مراراً وتكراراً ، وهي التى كتبنا عنها وعن صاحبها كتاباً جعلناه باسم : « مع ابن جبير في رحلته » وقد طبع ونشر كما قدمناه قبل هذا ..

● ● ●

بيت سيار قائله مجهول

ما أكثر هذه الأبيات السائبة في أفواه الناس شرقاً وغرباً وهم لا يعرفون مصدرها ولا اسم قائلها .. ولكنهم يتداولونهـا بينهم كالكرة بين أيدى الصبيان . ومن هذه الأبيات قول الشاعر:

---

(١٠) بدائع البدائه ص٣٣٩ .

أقام يجهد أياماً رويته
وفسر الماء بعد الجهد بالماء

فهذا البيت يعتبر بحق من أشهر الأبيات التى يتكرر دورانها على ألسنة كثير من الناس في كل مكان تقريباً .. وأغلبهم لا يعرفون قائله .. ولا عصره .. ولا شيئاً عنه .. وقد روى لنا ابن ظافر قصة هذا البيت وزميله الذي يسبقه في النظم والقول وهو :

وشاعر أوقد الطبع الذكاء له
أو كاد يحرقه من فرط اذكاء

وبعده مباشرة :

أقام يجهد أياماً رويته
وفسر الماء بعد الجهد بالماء

تقول القصة التى تولد منها البيتان المذكوران آنفاً :

(مضى الوجيه علي بن الذروي ، والنجيب هبة الله بن وزير في جماعة الى الحمام المعروف بأبي فروة ، فجرى بينهما تنازع أدى الى تناكر فضيلة الأدب ، ثم تراضيا بأن يحكم بينهما الشريف المعروف بأنكدودة ، فحكم بأن يصنعا قطعتين في صفة الحمام على البديهة ، ثم يقع التفضيل بينهما ، بقدر التفاوت بين القطعتين ، فصنع ابن الذروي بديهاً :

ان عيش الحمام عيش هنيء
غير أن المقام فيه قليل

جنـــة ’تكـــره الاقامة فيهـــا
وجحـــيم يطيب فيـــه الدخـــول
فـــكأن الغـــريق فيـــه كلـــيم
وكأن الحـــريق فيـــه خليـــل

وصنع ابن وزير بعد بطء :

لله يـــــوم بحمـــــام أقمت’ به
والمـــاء من حوضـــها ما بيننا جار
كأنه فـــوق شـــفاف الرخام بهـــا
ماء يســـيل عـــلى أثواب قصـــار

فانتقد عليه الجماعة تشبيهه الماء بالماء ، واستبردوا ما أتى به ، فقال ابن الذروي :

وشـــاعر أوقـــد الطبع الذكاء له
(البيتـــين المـــارين آنفا)(١١)

ومن هذه القصة ندرك اسم من قال البيت المقدم ..

● ● ●

وبالمناسبة أذكر أني كنت قرأت بيتاً آخر نسيت قائله أيضاً .. وفيه تشبيه صريح للماء بالماء أكثر مما هو صريح في بيتي علي بن الذروي .. وذلك قول ذلك المتشاعر المهزوز :

(١١) بدائع البدائه ص٢٥٩ و٢٦٠ .

كأننـــــا والمـــاء من حولنـــا
قـــوم جـــلوس حـــولهم ماء

● ● ●

وهناك أيضاً قصة بيتين آخرين هما أشهر من نار على علم .. ومع ذلك أجزم باختفاء اثر اسم قائلهما عن أذهان الكثيرين من رواتهما الذين يرددونهما في مناسبة قولهما البليـغ أثنـاء أحاديثهم عن الحياة ومفارقاتها وأحوالها الاجتماعية في كرمهـا وسخائها ، وفي شحها وندرة عطائها ، على الرغم مما فيهما من مبالغة وغلو منكرين شرعاً وعقلا والبيتان هما :

لئن جاد شـــعر « ابن الحسين » فانه
يجود العطايا واللها تفتـــح اللهـــا
تنبأ عجباً بالقـــريض ، ولو درى
بأنك تـــروي شـــعره لتألهـــا

والقصة المشار اليها تقول : « جلس المعتمد بن عباد يوماً ، فأنشد بعض جلسائه قول أبي الطيب :

اذا ظفرت منـــك العيـــون بنظرة
أثاب بهـــا ُمعيي المطي ورازمـــه

فاســـتبدعه المعتمد واستحسنه ، وجعله أبدع ما للمتنبي وأحسنه ، فارتجل عبد الجليـل بن وهبون المرسي : (لئن جاد شعر ابن الحسين) (البيتين السابق ذكرهما آنفاً .. فاستحسن

المعتمد (بيتيه) وأمر له بمائتي دينار(١٢) .

● ● ●

منارة الاسكندرية في شعر البديهة

من معالم الاسكندرية العتيقة التى نالت حظها في كتب العلماء والمؤرخين والرحالين والشعراء هذه المنارة الشامخة المشرقة التى تهدي السارين في البحر الأبيض المتوسط الى مدينة الاسكندرية عبر الضباب المتكاثف والأمواج المتصاعدة والليل البهيم .

ومن شعر البداهة في هذه المنارة في أواخر القرن السادس الهجري نروي لك خلاصة حكاية مشهورة أوردها لنا علي بن ظافر في كتابه « بدائع البدائه » : وذلك أن الشاعرين الصديقين الحميمين : ابن قلاقس ، وأبا الحسن علي بن الذروي ، طلعا الى هذه المنارة فاقترح ابن قلاقس على ابن الذروي أن يصف المنارة فقال بديها :

وسامية الأرجاء ’تهدي أخا السُّرى

ضياء اذا ما حندس الليل أظلما

(١٢) بدائع البدائه ص٣٦٨ .

لبستُ بهـا بُرداً من الأنس ضـــافيا
فكان بتـــذكار الأحبة معلمـــــا

وقــــد ظللتني من ذراها بقبـــة
ألاحظ فيها من صحابي أنجمـــــا

تخيلتُ أن البحـــر تحتي غمـــامة
وأني قــد خيمتُ في كبد السمـــــا

فحين رأى الأعز ما أتى به ، اشتد سروره وفرحه ، وقال يصفها ويمدحه :

ومنـــزل جاوز الجـــوزاء مُرتقبـــا
كأنمـــا فيـــه للنسرين أوكـــــار

راسي القــرار وسـامي الفرع في يده
للنـون والنــور أخبـار وآثـــــار

أطلقتُ فيــه عنـان الفــكر فاطردتْ
خيل لها في بديع الشعر مضمـــــار

ولم يدع حســناً فيــه « أبو حســن »
الا تحكم فيـــــه كيف يختـــــار

حلّى المنــارة لمـا حــلّ ذروتهـــا
بجوهر الشـــعر بحر منه زخـــار

ما زال 'يذكي بهـــا نار الذكاء الى
أن أصبحت علمـــا في رأســـه نار(١٣)

وواضح أن البيت الأخير من أبيات الأعز مقتبس من الشطرة الأخيرة من قول الخنساء رضي الله عنها :

وان صـــخراً لتـــأتم الهـــداة به
كأنه عـــلم في رأســـه نـــار



(١٣) بدائع البدائه ص٢٥٨ و٢٥٩ .



الفصل الثامن

نماذج من نقد ابن ظافر

ليس ابن ظافر ـ في كتابه ـ مجرد كاتب جماع ، لا يفرق بين غث وسمين ، انه ذو دراية واعيـة ، لكل ما يدونه ، فان عقله الكبير ليختزن طاقات قيمة من ألوان الشعر الراقي قديمه ومعاصره ، كما يختزن معلومات تاريخية رافدة لتلك الطاقات ..

وهو يجيد الاختيار .. فأغلب شعر البدائه الذى رواه جيد منسجم ، وجذاب .. وتسميته لكتابه باسم « بدائع البداته » هي في نفسها تسمية فنية موفقة جاءت في محلها برغم ما حوته من ظلال الجناس . أما أغلب نثره فهو نثر مسجع لا يخلو من تكلف ، سار فيه مسيرة معاصريه من أهـل القـرنين السادس والسابع الهجريين .. بل والخامس أيضاً .. وقد حالت تزاويق هذا النثر وزخرفاته دون التمتع بجمال معانيه ، على ان هذا النثر المسجع ليس شاملا لكل نثره .. فهو انما يسجع اذا عني بأن يصف منظراً أو مشهداً أو مخبرا وصـفاً أدبياً ممتازا ، بمعنى الفن للفن .. أما اذا تحدث مخـبراً فهو النثر المرسل السهل .

ونزمع فيما يلي هذا أن نقتطف لك من حديقة كتابه نماذج كشافة من نقده المتزن الهادف ، لتدرك أي أديب قدير ، كان علي بن ظافر الأزدى الخزرجي ..

وسنسوق لك المقتطفات التى اخترناها متسلسلة في عبـارات موجزة ، أو « خلاصات مركزة » رأينا أن نتصرف فيهـا هكذا ضمانا لأن يأخذ كتيبنا هذا حجماً مناسباً منسجما مع الكتيبات التى تصدرها المكتبة الصغيرة .. فنقول :

نقده لمناقضة عمر بن أبي ربيعة وابن اللهبي

دارت مناقضة شعرية مرتجلة بين عمر بن أبي ربيعة المخزومي ، والشاعر الفضل بن العباس اللهبي(١) .. وروى هذه القصة راويان ، هما أبو عبيدة وابن عائشة ، وكان مما تقاوله الشاعران فيما يبدو قول أولهما :

أبناء مخزوم الحريق اذا
حركت نيرانه ترى ضرما
يخرج منه الشرار مع لهب
من حاد عن حره فقد سلما

وقد أجابه الآخر فقال :

هاشم بحر اذا همى وطما
أخمد حر الحريق واضطرما
واعلم ـ وخيرُ المقال أصدقُه ـ
بأن من رام هاشما هُشما

وقد نفذ سهم نقد ابن ظافر الى صميم هذا الشعر اذ أدركت شاعريته اللماحة ، ونقده الحصيف ما يشتمل عليه من ضعف وركاكة هما دون مستوى الشاعرين فأرسل كلمته في نقد

---

(١) نسبة الى أبى لهب القرشى الهاشمى ـ وهو الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب الشاعر وكان يعين الناس .. فاذا أجلت دراهمه ركب حمارا له يقال له : شارب الريح فيقف على غرمائه ويقول :

بنى عمنا ردوا الدراهم انما يفرق بين الناس حب الدراهم
(عيون الأخبار لابن قتيبة ص٦٥٦ طبعة مصر) .

هذه الحكاية فنسف بمتفجرها ما حوته من الشعر أيضاً ، قال :

« أحسب الحكاية مصنوعة لأن أشعارها ضعيفة »(٢) .

والواقع : يشهد بدقة نقد ابن ظافر لهذه الأبيات التى اشتمل عليها حوار الشاعرين الملفوف في أسمال بالية من الركاكة والتخاذل .

● ● ●

حتى المصادر ينقدها

روى عن أبي العباس المروزى أن المتوكل صنع بيتاً ، وطالب فضل الشاعرة أن تجيزه ، والبيت هو :

لاذ بهـا يشـتكي اليهـا
فـلم يجـد عنـدها ملاذا

فصنعت بديهة :

ولم يـزل ضـارعاً اليهـا
تهطـل أجفـانه رذاذا
فعاتبـوه فـزاد شـوقاً
ومات عشـقاً فـكان ماذا ؟

فطرب المتوكل وقال : أحسنت وحياتي يا فضل(٣) ، وأمر

---

(٢) بدائع البدائه ص٢٦ ط. القاهرة ، مع بعض تصرف .

(٣) أوردنا هذا النص لأمانة النقل والا فان القسم بحياة الانسان من الانسان لا يوافق عليه الشرع الاسلامى الحنيف .

لها بمائتي دينار وأمر عريب فغنت به .

وعقب علي بن ظافر على هذا الخبر فقال :

(قال علي بن ظافر : وقد ذكرنا البيت الأخير من بيتي فضل في حكاية أبي السمراء في اجازة بيت ببيت ، الا أن هذه الحكاية أثبت رواية من تلك ، وهي من رواية أبي الفرج في الأغاني)(٤) .

●—●—●

أبو السمراء والجارية العاشقة

الخبر الذى نقده علي بن ظافر في القصة السابق ذكرها آنفاً هو :

(ذكر ابن القمي في كتاب « الديباجة » قال : دخل أبو السمراء على نخاس ، فسمع بكاء من داخل البيت ، وقائلة تقول :

وكنا كزوج من قطا فى مفازة
لدى خفض عيش مونق معجب رغد
أصابهما ريب الزمان فأفردا
ولم أر شيئاً قط أوحش من فرد

فقال للنخاس : أخرجها ، فقال : ان صاحبها مات ، وهي

(٤) بدائع البدائه ص ١١٢ .

شعثة مغبرة . قال : فخرجت ، فقال لها : قولى في معنى هذا ..
قالت : أي معنى ؟ قال : في معنى هذين البيتين اللذين تمثلت
بهما ، فقالت :

وكنـــا كغصني بانة وســط روضــة
نشــم جني الجنــات في عيشــة رغــد
فأفــرد هــذا الغصــن من ذاك قاطــع
فيــا فــردة باتت تحن الى فـــرد !

فكتب الأمير أبو السمراء الى(٥) عبد الله بن طاهر بخبرها،
فكتب : ان أجازت هذا البيت فاشترها ، وهو :

بعيــد وصــل بديــع صـــد
جعلتـــــه في الهــــوى ملاذا

فقالت مسرعة :

فعاتبـــوه فــــزاد شــــوقا
فمـــات عشـــقا ، فـــكان ماذا ؟

فاشتراها أبو السمراء فماتت من الغد(٦) .

وهنا نتساءل : هل لبيت أحمد شوقي المعروف الذى تتابعت
فيه الفاءات في وصف موقف مضــاد لهذا الموقف عــلاقة بهــذا
البيت من ناحية الاقتباس ؟

والبيت مشهور وهو :

نظــرة فابتســامة فســلام   فــكلام فموعــد فلقــاء

---

(٥) حرف (الى) زدته من عندى مراعاة لسياق الكلام .
(٦) بدائع البداثه ص٩٣ و٩٤ .

يشك في وجود مجنون بني عامر

يبدو من النبأ الوارد فيما بعد أن علي بن ظافر متحرر في آرائه الأدبية ، فها هو ذا يروي لنا حكاية من حكايات مجنون بني عامر ، أو مجنون ليلى كما يسمى أيضاً ، فيستهل الحكاية باطلاق سهام الشك والارتياب في وجود « بطل الحكاية » على قيد الحياة تاريخياً .. واليك النص فى هذا الشأن :

(ويروى ـ ان صح وجود مجنون بني عامر ـ أنه لما تزوجت ليلى عظم ذلك عليه ، واشتد همه وحزنه ، وأراد ابن عم له سفراً ، وكان طريقه على منزل ليلى ، فأتاه المجنون ، وقال له : اذا مررت على منزل ليلى ، فارفع صوتك بهذا البيت قائلا :

أما وجلال الله لو تذكرينني
كذكريك ما نهنهت للعين مدمعا

فلما بلغ منزلها صنع ما طلبه منه ، فخرجت ليلى اليه ، وقالت :

بلى وجلال الله ذكرا لو انه
تضمنه صلد الصفا لتصدعا

وقد تعقب ابن ظافر هذا الخبر فنقده ونقضه من أساسه ، فقال :

« قال علي بن ظافر : والصحيح أن هذين البيتين من قصيدة للصمة القشيري ، ولكني نقلت هذه الحكاية من كتاب « الأجوبة »

للقمي»(٧) .

وأعقب أيضاً على نقد ابن ظافر بأن شكه وتشكيكه في وجود مجنون ليلى لم يكن فيه نسيج وحده .. فله أمثال من النقدة ..

●—●—●

تزييف حوار شعري مرتجل

حدثنا ابن ظافر بأن الفقيه أبا محمد عبد الخالق المسكي كتب أن بشاراً قال لعنان : جارية الناطفي ، مداعباً :

عنان يا منيتي ويا سكني
أما تريني أجول في سككك
حرمت منك الوفا معذبتي
فعجلي بالسجل من صككك
اني ورب السماء مجتهد
في حل ما قد عقدت من تككك

فأجابته :

لم يبق مما تقول قافية
يقولها قائل سوى عككك

فقال مجيباً لها ، بيتاً لا يخلو من البذاءة (ترفعنا عن نقله) وهو في نفس الوزن والقافية .

---

(٧) بدائع البدائه ص٣٢ .

وقد تعقب ابن ظافر هذا الحوار الشعري البدهي فقوضه من أساسه ، اذ قال :

« قال علي بن ظافر : عنان لم يدركها بشار ، وانما كان يشاغبها أبو نواس .. ولهما في مثل هذا أخبار كثيرة» .. وأضاف ابن ظافر الى ذلك قوله : « وهذه القافية مما يعايى به »(٨) يعني أنها من القوافي التى 'يعجّز' بها الشعراء ، أو نحو هذا المعنى) .

●—●—●

شك في بيت ينسف محاورة شعرية بدهية

وذكر ابن ظافر أنه : « روى أن أبا نواس دخل على جارية الناطفي « عنان » في بعض أيام الربيع ، فقال أجيزى ·

كل يوم من أقحوان جديد
تضحك الأرض من بكاء السماء

فقالت مسرعة :

فهو كالوشي من ثياب عروس
جلبتها التجار من صنعاء

وقد تعقب ابن ظافر هذه الرواية فقال : (والبيت الأول أظنه لابن مطير من قصيدة ، الا أنه منسوب في الموضع الذى نقلت

---

(٨) بدائع البدائه ص٣٩ .

منه الى أبي نواس ، فأوردته كما وجدته(٩) .

وبهذا الشك العلمي المستند الى الاثبات المذكور .. قوض ابن ظافر سائر بناء هذه الرواية .. وصيغة : (أظن) هنا بمعنى « أعتقد ، وأعلم » .. وقد وردت هذه الصيغة ومشتقاتها في القرآن المجيد بمعنى (العلم واليقين) في آيات كريمة .. كما وردت في أخرى بمعنى (الشك وعدم اليقين) .

●—●—●

نقد دقيق من ابن ظافر لقصة عقيل بن علفة

أسهب ابن ظافر في حديثه عن قصة بني عُقيل بن علفة المُـرِي . وتتضمن هذه القصة شعراً حوارياً مرتجلا ، مع ابنه . فذكر رواية أبي الفرج لهذه القصة ورواية ابن قتيبة لها في كتاب الأشربة ، حيال ما قاله عقيل بن علفة بعد أن رماه بنوه بسهم شل فخذه ثم ضربه لابنته الجرباء بسوط . وقوله عقب شلهم لفخذه بالسهم :

ان بني زملوني بالدم — من يلق آساد الرجال يكلم
شنشنة أعرفها من أخزم

وقد نقل لنا ابن ظافر ما ذكره أبو الفرج الاصفهاني في

(٩) بدائع البدائه ص٩٢ . وقد تقدم أنفا نفيه للقاء أبى نواس لعنان، ونسبة هذا اللقاء لبشار .

(الأغاني) عن هذا الرجز في حكاية أخرى تتصل بيزيد بن عياش التغلبي والربيع بن نمير ، وذلك أن عقيل بن علفة غدا على أفراس له عند بيوته ، فأطلقها ، ثم رجع فوجد بنيه وأمهم مجتمعين . فشد بسيف (على أحدهم) ، فحاد عنه وتغنى بقوله :

قفي يا ابنة المُـرِي نسألك ما الذي
تريدين فيمـــا كنت منيتنا قبـــل ؟
نخـبرك ان لم تنجـزي الوعـد أننــا
ذوا خلـّـة لم يبــق بينهما وصـــل
فان شئت كان الصـّـوم ما هبت الصبا
وان شئت لا يفنى التـكارم والبـذل

فقال عقيل : يا ابن اللخناء (أي النتنة) متى منتك نفسك هذا ؟ وشد عليه بالسيف ـ وكان عملس أخاه لأمه ، فحال بينه وبينه ، فشد على عملس بالسيف ، فرماه علفة بسهم ، فأصاب ركبته ، فسقط عقيل ، وجعل يتمعك في دمه ، ويزمجر بالرجز المتقدم ، وبعده :

من يلق أبطـال الرجال يُكلم ومن يكن ذا أود يُقوم(١٠)

ثم عطف ابن ظافر عـلى ذلك بقـوله : « قال المـدائني : و « أخزم » فحل لرجل كان منجباً ، فضرب في ابل رجل آخر ،

---

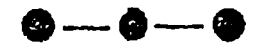
(١٠) هذا الرجز من شعر الاعتراف بما حدث من العراك بين الخصوم .

ولا يعلم صاحبه ، فرآى بعد ذلك من نسله جملا : فقال : « شنشنة أعرفها من أخزم » فأرسلت مثلا .

ثم نقل ابن ظافر رأي الحريري في تفسيره لبعض مقاماته بأن « أخزم » جد حاتم الطائي ، وأن جده الأدنى سعداً ، ضربه له مثلا .. لما رآى من تخلقه بأخلاقه وآثاره ، و « الشنشنة » : الشّبه .

ولكن ابن ظافر رفض قبول رأي الحريري هذا في المثل المشار اليه آنفاً فقال : « والصحيح ما ذكره أبو الفرج » .

وبعد ذلك أماط ابن ظافر اللثام عن سبب قيام علفة(١١) بما قام به حيال أبنائه وابنته من شتم وعراك وما الى ذلك .. فقال : « وهذه الفعلة من علفة(١١) كانت سبب تفريق عقيل أولاده وطردهم عنه .. وكانوا يقصدون أذاه بانشاد الغزل بحضرة أخواتهم لأنه كان مفرط الغيرة مبالغاً في الظنة ، شديد الرقاعة ــ أي الحمق ــ وهم من شياطين العرب »(١٢) .



---

(١١) يبدو أن هنا سقطا هو (عقيل بن علقة) ضمانا لانسجام الكلام وصحته .
(١٢) بدائع البدائه ص٢١٣ ــ ٢١٦ .

تعليق كشاف ، وملاحظة دقيقة

قال ابن ظافر : (وحكي أن علي بن الجهم قال : كنت بين يدي المتوكل وقد أتاه رسول برأس اسحاق بن اسماعيل ، فقام علي بن الجهم يخطر بين يدي الرسول وهو يرتجز :

أهلا وسهلا بك من رسول جئت بما يشفي من الغليل

برأس اسحاق بن اسماعيل

فقال المتوكل : « التقطوا هذا الجوهر لا يضيع » .

● ● ●

تعقب ابن ظافر في كتابه « بدائع البدائه » هذه الحكاية فقال : « قال علي بن ظافر : اسحاق بن اسماعيل هذا مولى لبني أمية ، خرج بتفليس ، فى سنة سبع وثلاثين ومائتين ، حين وثب أهل أرمينية بعاملهم ، من جهة المتوكل يوسف بن محمد بن يوسف .. وتولى قتل اسحاق هذا يغا الكبير فى سنة سبع وثلاثين (ومائتين) ولم يكن بين اغتباط المتوكل بعلي وشعره ، هذا الاغتباط ، وبين نفيه الا نحو سنة ، فانه نفاه الى خراسان في سنة ثمان وثلاثين(١٣) « بعد المائتين » .

وأقول تعليقاً على هذا الخبر وعلى تعليق ابن ظافر عليه ..

---

(١٣) بدائع البدائه ص٣٤١ .

« وهكذا أضاعت السياسة الجوهر الذى كانت دعت منذ عام فقط الى الحرص على التقاطه قبل أن يضيع ... فأضاعت رأس المال جوهراً وريعاً ... والسياسة دائماً قلب ...

●—●—●

هل هو اقتباس أم اختلاس ؟

ويحدثنا ابن ظافر بالأبيات التى قالها على البديهة ، أبو الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي الدرامي في «شمعة» كانت تضيء له ولبعض أصحابه ذات ليلة ، وقد أفضى حديثهم عنها الى وصفها شعراً بدهياً فقال فيها أبو الفضل أبياته التى آخرها :

وأنت على ما قد تقاسين من أذى
فصدرك فى نار ونارى فى صدري

ونرى ابن ظافر يعلق على هذا البيت بقوله :

(قال علي بن ظافر : وهذا مثل قول الأعمى التطيلي في شمعة :

بآية ما تبكي وفى النار صدرها
وقد جمدت عيناي والنار فى صدري(١٤)

● ● ●

---

(١٤) بدائع البدائه ص٣٦٤ .

وأقول : تعليقاً على بيتي أبي الفضل ، والتطيلي ، لاح لى أن المعنى فى كلا البيتين واحد وان اختلفت عباراتهما . فهل يعتبر ما نظمه أبو الفضل اذا كان متأخراً مختلساً أو مقتبساً من قول التطيلي اذا كان قبله ؟.

●—●—●

نقد لغوي دقيق

استعمل الشاعر أبو الفضل ابن حسداي ، صيغة « النينان » جمع « نون » بمعنى الحوت ، في قصيدة عصماء ارتجلها في وصف موكب أحمد بن المؤتمن بن هود الجذامي صاحب سرقسطة (من بلاد الأندلس) والثغور (بالأندلس) .. وقد سار موكب أحمد ابن المؤتمن هذا قُـدُماً على سفن تمخر عباب النهر الجميل ، تحف بزورقه الذي كان فيه معه الشاعر .. من جانبيه ، سفن مصـنوفة منتظمة الاصطفاف في مسـيرتها الهـادئة ، الى جانب بعضها .. وسـفن أخرى متناثرة تنـاثر الدرر على حصباء من صعيد فضي متلامع .. وكان أحمد بن المؤتمن في مسيرته النهرية هذه ، في « رحلة عمل » .. كان يتفقد بعض معاقله بساحل ذلك النهر .. وها نحن أولاء نقـدم لك القصيدة (البدهية) التى جادت بهـا قريحة الشاعر الفحل (ابن حسداي) .. وهي من الشعر العمودي الأصيل الموزون المقفى ، مما يضع أصابعنا على

مدى سهولة هذا اللون من الشعر ومرونته بالنسبة لشعراء العرب . ومن شأن ذلك أن يقوض زعم خصوم هذا الشعر .

قال ابن حسداي وما أجمل ما قال :

لله يوم أنيق واضح الغرر
مفضض 'مذهب'(١٥) الآصال والبكر

كأنما الدهر لما ساء ، أعتبنا
فيه بعتبى وأبدى صفح معتذر

★ ★ ★

نسير في زورق حف السفين به
من جانبيه بمنظوم ومنتثر

مدّ الشراع به نشراً على ملك
بذ الأوائل في أيامه الأخر !

هو الامام الهمام « المستعين » حوى
علياء « مؤتمن » في هدي (مقتدر)

تحوي السفينة منه آية عجبا
بحر تجمع حتى صار في نهر

---

(١٥) صيغة « مذهب » بضم الميم وسكون الذال من الاذهاب ـ بمعنى طلاء الشيء بالذهب ـ فصيحة ، وهي مثل صيغة « مذهب » بفتح الذال وتشديد الهاء وفتحها ـ في الفصاحة (راجع مادة ذهب في القاموس المحيط) .

تثار من قعـــره (النينان) مصعدة
صـيداً ، كمـا ظفر الغواص بالدرر

* * *

وللنـــدامى به عب ومرتشـــف
كالراح يعـــذب في ورد وفي صـدر
والشرب في ود مولى خلقــه زهـــر
يذكو وبهجتـــه أبهى من القمـــر

* * *

ومع روعة هذه القصيدة فانها لم تحل دون عمق ابن ظافر في نقده اللغوي لها ، فانه نقد الشاعر ابن حسداي في جمعه لـ (نون) على (نينان) .. فقال معقباً وشارحاً وجهة نظره ، متوسعاً في الشرح والتحليل ، على غير عادته الغالبة عليه في مثل هذا الموقف :

(قال علي بن ظافر : قوله : « نينان » غير معروف ، فان « نونا » لم يجيء جمعها (على) « نينان » . وقد كان سيبويه لحن بشار بن برد في قوله ، في وصف السفينة :

تلاعب « نينان » البحـــور وربمـــا
رأيت نفوس القوم من جـريها تجري

فغيره بشـــار بـ « تيار البحور » .. وقد قال أبو الطيب يصف خيلا :

فهن مع السـيدان في البحر عسـل
وهن مع « النيان » في البحر عوم«١٦»

★ ★ ★

وأقـول بمناسبة ما ذكره ابن ظافر من « تلحين » سيبويه لبشار في جمعه صيغة « نون » على « نينان » ورضوخ بشار – على عنجهيته وصـلابته – لرأي ناقـده فعدل بيت شـعره الى ما ليس بلحن ، على ضوء ذلك النقد ، أقول :

« ليت الذين يصرون على الصيغ العامية الملحونة في كتاباتهم وخطاباتهم وخطبهم ومنشوراتهم وهم يعلمون – ليتهم يتأملون هـذا الصنيع من سـيبويه وبشـار فـلا يصرون على كسر جيم (ُجدة) المعلوم بالبداهة اللغوية أن صحتها الوحدة هي ضم الجيم ليس غير اذا كان المراد بها هو المدينة القائمة على شاطيء البحر الأحمر الشرقي بقرب مكة المكرمة .. في ناحيتها الغربية .

هذا ولم ُيعف ابن ظافر المتنبيء من النقد المرير للانحراف اللغوي الذى وقع فيه أيضاً على جلالة قدره وتضلعه العظيم من اللغـة العربيـة .. ولم ُتنجـه قوة بيـانه العربي من تسليط ابن ظافر لتيار النقد عليه .. والهدف – كما هو معلوم – من هـذا النقد اللغوي الجـارح ومن كل نقد لغوي مماثل قـديماً

---

(١٦) بدائع البدائه ص٣٦٨ .

وحديثاً هو ضمان سير موكب اللغة العربية في طريق فصاحتها القويم ، حتى لا تضار بتيارات العامية والعجمة المنحرفة فتبتلعها قليلا قليلا حتى تصبح فيما بعد أثراً بعد عين ، لا قدر الله .

فليع هذه الحقيقة أولئك المتساهلون عن خلوص نية أو عن غير خلوصها حيال ضرورة تقويم بيانهم في هذه اللغة الكريمة التى هي أمانة لا يجوز التفريط فيها بحال من الأحوال فى عنق العرب والمسلمين أجمعين ، فى مختلف الأزمنة والأمكنة. فلطالما ذابت لغات تحت طرقات الاهمال والخذلان والتساهل . والله الهادي الى سواء السبيل .

●—●—●

قصة ابن خفاجة وابن أبي تليد

حدث ابن خفاجة قال : « خرجت يوماً بشاطبة الى باب السمارين ابتغاء الفرجة(١٧) على خرير الماء بتلك الساقية ، وذلك سنة ثمانين وأربعمائة ، واذا بالفقيه أبي عمران بن أبي تليد ـ رحمه الله ـ قد سبقني الى ذلك ، فألفيته جالساً على

---

(١٧) مع استعمال بعض المولدين لكلمة الفرجة بمعنى الفسحة والاستجمام والتنزه فانها لم ترد في الفصحى بهذا المعنى فهي مولدة .

مصطبة دكان كانت هناك مبنية لهذا الشأن ، فسلمت عليه ، وجلست اليه متأنساً به ، فجرى أثناء ما تناشدناه ، ذكر قول ابن رشيق :

يا من يمر ولا تمر — به القلوب من الحرق

بعمامة من خده — أو خده منها استرق

فكأنه وكأنها — قمر تعمم بالشفق

شغل الخواطر والجوا — رج والمسامع والحدق

فقلت له ـ القائل : ابن خفاجة، والمقول له الفقيه أبو عمران الشاعر وقد أعجب بها جداً ، وأثنى عليها كثيراً ـ : أحسن ما فى القطعة سياقه الاعداد والاستنزال ، لكنه قد استرسل فلم يقابل بين أطراف البيت الأخير ، والبيت الذى قبله ، فينزل بازاء كل واحد منها ما يلائمه ، وهل يحسن أن ينزل بازاء قوله : « واذا نطق » قوله : « شغل الحدق » وكأنه نازعني القول في أن هذا غاية الجهد .. فقلت بديهاً :

ومهفهف طاوى الحشا — .... المعاطف والنظر

ملأ العيون بصورة — تليت محاسنها ...

فاذا رنا واذا مشى — واذا شدا واذا سفر

فضح الغزالة والنعا — مة والحمامة والقمر

فجن بها(١٨) .

وكدأب ابن ظافر فيما يرى من منقولاته أنه غير قويم نراه يوجه نقده اللاذع الى الجزء الذى يستحق اعادة النظر فى تلك الأبيات .. فيقول : (قال علي بن ظافر : القطعة الأولى ليست لابن رشيق ، بل هي لأبي الحسين بن علي بن بشر الكاتب أحد شعراء اليتيمة)(١٩) .



---

(١٨) ص٣٧٧ و٣٧٨ من بدائع البدائه .
(١٩) المصدر السابق ص ٣٧٨ .

الفصل التاسع

أغلاط مطبعية في الكتاب المحقق

كثيرة هي الأغلاط المطبعية الموجودة فى كتاب « بدائع البدائه » المطبوع بمصر والذى حققه الشيخ محمد أبو الفضل ابراهيم .

وقد ساقتني بغية الوصول الى كنهها وألوانها الى أن أستقصيها تقريباً وأضعها فى اطار البيان التالى ، وما أكثر أغلاط المطابع مهما يُعنَ بتصحيحها :

وقد وقع غلط مطبعي فى الصفحة (ج) س٩ من كلمة (التصدير) لمحقق الكتاب : وردت « الأفاكية » بالتاء المربوطة بدلا من الهاء .

وجاءت هذه الجملة : « بدائع البدائع » ص(ج) س١٥ وصوابها : « بدائع البدائه » اسم الكتاب .

وطبعت هذه العبارة : (ثم أطلقه وسرحه في بهمة) ــ (ص١٨٩ س٤) وصوابها : (ثم أطلقه وسرحه فى بَهِمِه) بهاء مربوطة .

وهناك (بهمي) وردت بفتح الميمم .. والصواب كسرها (ص١٨٩ س٤) .

كأنما أحد وبَهِمي عيرا   من القرى موقرة شعيرا

وقد حركت المطبوعة ، شين (نشزا) في بيت زهير : (ص١٨٩ س١٣) :

على لاحب مثل المجرة خلفه

اذا ما علا نَشزاً من الأرض مهرق

والصواب تسكين الشين ليصح وزن البيت . وصيغة (نشز) هذه ترد ، لغة ، محركة الشين وساكنتها ، وقد قدم القاموس تسكينها على فتحها . ولكن وجودها فى البيت المذكور يستوجب تسكينها مراعاة للوزن .

ووضعت المطبوعة المحققة صيغة (أجعل) بالعين المهملة بعد الجيم التحتية ، بدلا من « أجبل » الصحيحة فى قول ابن ظافر : (ثم أجبل : يريد الزيادة فلم يقدر) (ص١٩١ س٩) .. وأجبل ، هنا بمعنى عجز عن انشاء اضافة على ما قاله من الشعر . والدليل على أن هذا المعنى والصيغة هما المقصودان قول الشاعرة « ليلى » بنت حسان رضي الله عنه ، له : (كأنك قد أجبلت) ؟ قال : نعم الخ .. وذلك في الصفحة وعقب السطر .

وزادت المطبوعة المحققة (واواً) لا لزوم لزيادتها ، لا معنى ولا مبنى .. وذلك فى قول الشاعر :

وقد ملأ الأرض طـرا بتيهه وببرده

(ص١٩٤ س١٩) . ومحل الزيادة أول البيت .

وزيد فى الطبعة المحققة حرف الجر : « من » ثانية على الصحيحة .. نورد فيها : (وتلوى تلوي الحيّات من من جانبيه) بتكرار « من » (ص٢٠٩ س٩ و١٠) .

وحذف ضمير : (هُم) فى البيت التالى :

ما بين ندمان ظِـرَا ف حين تخبرهم كِيَاس

وذلك من الغلط المطبعي بدوب ريب (ص٢٢٠ س١٢) .

وكَسَرَ (تاء) (قاربت) المفتوحة ، خطاباً لرجل شاعر كان الرشيد يحاوره فقال له : (قد قَارَبتَ) (ص٢٢٠ س١٢) .

وضَمَّ فاء (نقصف) . ومن حقها السكون لأنها مجزومة على أنها جواب لشرط محذوف . وكَسَرَ ميم (اليوم) مع أنها مفتوحة لكونها اسم ظرف منصوباً . وذلك في قول الشاعر دعبل :

ومُرُوا نقصِف اليوم فـاني بائـع خفي

(ص٢٢١ س١٦) .

واكتفى بضمة واحدة لصيغة «نقد» المنونة على الرفع في قوله: (وهذا نقد ما كنتُ فطنت له) (ص٢٤٢ س٩) فتغير المعنى بتغير الحركة ، فاستبهم المعنى على القاريء بسبب هذا الاكتفاء بالضم عن التنوين الصحيح .

وفتحت عين (عِشاء) المكسورة غلطاً مطبعياً فى قول ابن المنجم الشاعر :

وعِشاء كأنما الأفق فيه لا زورد مرصع بنضار

(ص٢٤٤ س١٧) .

وحرفت عبارة : (استخدمت الليل بواباً) الى : (استد خدمت الليل بواباً) (ص٢٧٦ س٩) .

وَوُضِعَت نقطتان على هاء (الفقيه) فانحرف المعنى المقصود عن مساره اللغوي الطبيعي المروم (ص٢٩٧ س١٠) وذلك فى قوله : (وأخبرني الشيخ الفقية) .

وحَذفَت الطبعةُ المُحققَّةُ كلمات بجملتها ترك حذفها فى المقولة ثغرة مفتوحة لم تُملأ بشيء .. وقد دل على هذا الحذف دلالة واضحة أخذناها منه ما ورد فى آخر القصة التى تضمَّنت تلك العبارة المُنْدجَة .. وهذه هي القصة نوردها لك بتمامها لتقف بنفسك على موضع الثغرة أو الهُوة التى تركتها الطبعة مفتوحة .. ولتدرك الدليل القائل والبارز على ما كان يملؤها قبل .. وقد وضعنا في مكان الحذف نقطاً للدلالة عليه :

« بالسند المتصل من المؤلف الى أبي القاضي التنوخي قال هذا : (أُصعِدَ أبو الفرج الببغاء هو وجماعة من الشعراء الكبار ... يمتدحونه ، فأخرج يوماً خازنه قدحاً من ياقوت أزرق ، فملأه ماء ، وتركه يتشعشع . فقال له أبو الفرج : يا مولانا ! ما رأيت أحسن من هذا ! فقال : قل فيه شيئاً وهو لك . فقال أبو الفرج في الحال :

كم مِنّة للظلام في عنقي
بجمع شمل وضم معتنق
وكم صباح للراح أسلمني
من فَلَق ساطع الى فلق

فعاطنيهـــا بكـــراً مشعشـــعة
كأنهـــا فى صفائهـــا خُلُـقي
فى أزرق كالهـــواء يخرقه اللحـــ
ـــظ وان كان غـــير منخرق
كأن أجـــزاءه مركبـــة
حســـناً ولطفـــاً من زرقـــة الحـــدق
ما زلت منـــه منـــادماً لعبـــاً
مذ أســـكرتها المـــدام لم تفق
تختـــال قبـــل المزاج في أزرق الفجـــر
وبعـــد المـــزاج في شـــفق
أدهشـــها ســـكرنا فان يكن الصمـــ
ـــت حديثـــاً فـــذاك من فرق
تغـــرق في أبحـــر المدام فيســـتنقذ
ها شربنـــا مـــن الغـــرق
ونحـــن باللهـــو بين مصطبـــح
يمـــرح أمنـــا وبـــين مغتبق
فـــلو ترى راحـــتى وصـــبغتها
في لونهـــا في معصـــفر شرق
لخـــلت أن الهـــواء لاطفـــني
بالشـــمس فى قطعـــة من الأفق

فاستحسنها سيف الدولة ، فأعطاها اياه (ص٢٩٧ و٢٩٨) .

فالعبارة التى وردت فى آخر القصة المذكورة آنفاً دلتنا على ما حذف ـ طبعاً ـ فى أوائلها .. فقد ذكرت نص قول راوى

القصة : (فاستحسنها سيف الدولة وأعطاها اياه) .. واذن فالكلام المحذوف فيما سبق هو ما معناه : (أصعد أبو الفرج الببغاء هو وجمـــاعة من الشـــعراء الـكبار الى سيف الدولة يمتدحونه) الخ .. وقد وضعنا خطأ أفقياً تحت العبارة المحذوفة من النص المطبوع كما تراه آنفاً .

وحرفت عبارة (فقال بديهاً) فى (ص٣٠٨ س٧) الى (فقالى بديهاً) . كما حرفت كلمة (وسيم) بالياء المثناة الى (وسبم) بالباء الموحدة .

وحرف لفظ (أبي الخير) بالراء المهملة فى (ص٣١٢) الى (أبي الخيز) بالياء المثناة التحتية والزاي .. والدليل على هذا التصحيح وارد نصاً فى ص٣١٤ س١ بهذه الأبيات :

أبو الخـــير أبي الخـــير فـــلا خـــير ولا مـــير
ضـــئيل ناحل الجســـم ولـــكن كلـــــه ...

وجُعِلَت كلمة (روض) بالضاد المعجمة (روص) بالصاد المهملة ص٣١٦ س١١ وحرفت عبارة (خَيَّرهُ) بهاء الضمير المتصل بالفعل الماضي الى صيغة اسم (خيرة) من الخير (ص٣٤٣ س) . وصحة العبارة المحرف بعضها : (ويقال أنه خَيَّرهُ بينها وبين الوصف فاختارها نفياً للظنة عنه) .

وزاد حرف (من) الجارة فى عبـارة وردت فى ص٣٤١

س١١ وطبع : (حين وثب أهل أرمينية بعاملهم من جهة المتوكل) الخ .. كما كرر أيضاً حرف (فى) الجارة فى هذه العبارة : (قال يزيد الرياضي فى فى كتابه فى الأمثال) ص٣٤٥ س٤ .

وحرفت كلمة (أنبأني) بمعنى أخبرني .. الى كلمة أخرى هي (أبنائي) جمع (ابن) مضافاً الى ياء المتكلم .. وهكذا أصبحت (أنبأني) - (أبنائي) .

وحولت عبارة (انتهينا) الى عبارة أخرى هي (انتهيا) ص٣٥٠ س١١ وشددت ياء الضمير بعد حرف الجر : (اليّ) فى محل لا لزوم ولا معنى لتشديدها فقلب المعنى اذ حوله من جراسم علم : (أبي العلاء) - الى جر ضمير المتكلم ، وبذلك اختل المعنى المنشود والمبنى المقصود من هذه العبارة : (كتبت اليّ أبي العلاء المعري حين وافى بغداد) (ص٣٦١ س١٤) .

وحول هذا اللقب : (الدارمي) المعروف قديماً فى علم أصول الحديث النبوي - الى معنى ومبنى عصريين لا علاقة لهما بتاريخنا الاسلامي القديم فجعله : (الدرامي) .. وذلك فى عبارة وردت فى النص (ص٣٦٤ س٩) .

وأخل بوزن البيت الذى وردت فيه صفة (مذهّب) هكذا :

لله يوم أنيق واضح الغرر
مفضض مذهّب الآصال والبكر

وذلك بأن فتح ذال مذهب وشدد هاءها .. ومع صحة هذا الوضع لغَوِياً فانه يخل بوزن البيت لا محالة .. هذا الى أن

المراجع اللغوية تجيز تسكين الذال وتخفيف فتحة الهاء في كلمة « مذهب » . كما تجيز فتح الذال وتشديد الهاء فيها .. وسكون الذال هنا ضروري لاستقامة وزن البيت الذى هو من بحر البسيط . (ص٣٦٧ س١٨) .

وزيدت ألف بعد الزاي فى هذه الكلمة « ورازمه » الواردة فى آخر بيت للمتنبي :

اذا ظفرت منك العيون بنظرة
أثاب بها ’معيي المطي ورازمه

ص٣٦٨ س١٤ .

وكان هناك « حذف » مطبعي أو تصحيحي فى البيت التالى من مرتجلات الوزير الشاعر أبي بكر بن عمار وهو يخاطب به الرشيد :

ما ضَرَّ أن قيل اسحاق وموصله
ها أنت وذي حمص واسحق

(ص٣٦٩ س١٦) .. فهنا سقط فى أول الشطرة الثانية وربما كان أصلها : (ها أنت أنت وذي حمص واسحاق) ..

وحذفت ألف لام الوصل غلطاً مطبعياً فى « الزعفران » (بالصفحة ٣٧٠ س٨) وجعلت عبارة (فكتب اليه) ... وهي مبدوءة بالفعل الماضي فى المطبوعة كما تراه ـ جعلت هكذا : (يكتب اليه بديهاً) فاختل كل من المعنى والمبنى (ص٣٧٤

س١٣) وذلك لأن سياق الكلام يقتضي جعل الكلمة : (فكتب اليه) .. كما يتضح من مراجعة النص .

وجعلت كلمة « يتمنون » من الأمنية : (ينمنون) بنونين وهذا تحريف مطبعي لا غبار عليه .

وضمت الطبعة المحققة لام (قول) فى قوله : « فجرى أثناء ما تناشدنا ذكر قول ابن رشيق) والصواب الأكيد كسرها لأنها اسم منصرف مضاف اليه (ص٣٧٨ س٣) .

وحُرِفَت كلمة (البازل) المعروف أن معناها اللغوي هو الجمل الفحل القوي وجمعها (بُزل) .. قال الشاعر :

وابن اللبون اذا ما لز فى قرن
لم يستطع صولة البُزل القناعيس

حُرِفت كلمةُ (البازل) ـ بياء موحدة تحتية ـ .. بالنازل .. (بنون) بدل الباء ومعناه المعروف لغة هو الهابط ضد الصاعد (ص٣٨٢ س١١) ..

وكُرِرَ حرف (ثم) العاطف فى قوله : (ثم ثم جعل فى عمامته ريشة الخ) .. (ص٣٨٤ س١٧) ..

وحُذِفَت الراءُ من كلمة رشيق ، فضاع المعنى بسبب اختلال كتابة المبنى ، فنشر فى الكتاب المحققة طبعته :

مظهـــــر للعيـــون رِدفا مهيـــلا
وحشى ناحـــــلا وقـــــدا شـــيقاً

والصواب : (وَقدا رشيقا) (ص٤٠٦ س٦) .

وقد صنع مثل ذلك تماما فى كلمة القافية فى هذا البيت :

فغـــدونا تحت الدجى نتعـــــاطى
من رقيـــق الآداب خمـــراً حيقـــاً

والصواب طبعاً : (خمراً رحيقا) بوضع الراء قبل حاء (رحيق) .. (ص٤٠٧ س٢٠) .

وغُيِّرت صيغة (ريحاننا) بنونين بعدهما ألف الى صيغة أخرى مغلوطة (ريحاتنا) بتاء فنون فألف .. وذلك فى هـذا البيت من نفس القصيدة المروية أنفاً بعض أبياتها (وهي من نظم ابن ظافر) .

وكلمة (حكايات) جعلت تاؤها الأخيرة باء موحدة (ص٤٠٧ س١٤) .

وكلمة (البدائه) بعد (البدائع) جعلت هي أيضاً مختومة بحرف العين ، مع أن الصواب الواضح هو طبعها بالهاء ، لأنهـا جمع بديهة (ص٤٠٧ س٢١) .

وهذا كله من غلط المطابع الوفير فهو لا ينقطع مهما يُبذل من جهود فى سبيل تدقيقه وتحقيقه ، واصلاح تشويهاته الواسعة الانتشار على آفاق صفحات مطبوعاتنا العربية الحديثة خاصة .

فهرس الموضوعات

الفصل	الموضوع	الصفحة
المقدمة :	... ...	٣
الفصل الأول :	تقويم النثر الفني في عصر ابن ظافر وما قبله	٩
الفصل الثاني :	أحد عيون الأدب العربي	١٧
الفصل الثالث :	أضواء على الكتاب وكاتبه	٢٧
الفصل الرابع :	منهج ابن ظافر في كتابه	٤١
الفصل الخامس :	أشعار من بدائع البدائه	٤٩
الفصل السادس :	بدائه أشعار ليست في مستوى البدائع	٨٩
الفصل السابع :	لقطات متناثرة من الكتاب	١١١
الفصل الثامن :	نماذج من نقد ابن ظافر	١٣٩
الفصل التاسع :	أغلاط مطبعية في الكتاب المحقق ...	١٦١

المراجـــع

- كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري
- بدائع البدائه لعلي بن ظافر الأزدي .
- كتاب « بنو سليم » لعبد القدوس الأنصاري .
- ديوان فؤاد الخطيب .
- مجلة المنهل .
- معلقة طرفة بن العبد .
- القاموس المحيط للفيروز آبادي .
- رحلة ابن جبير .
- الحياة الأدبية في العصر العباسي – للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي .
- تحقيقات محمد أبو الفضل ابراهيم على طبعة : بدائع البدائه.
- تاريخ الأدب العربي – لحنا الفاخوري .

مؤلفات عبد القدوس الأنصاري

● التوأمان (أول رواية صدرت بالمملكة) ● اصلاحات في لغة الكتابة والأدب ● آثار المدينة المنورة ● الأنصاريات (ديوان شعر) ● مع شاعر العرب عبد المحسن الكاظمي ● بين التاريخ والآثار ● بنو سليم ● تاريخ مدينة جدة ● التحقيقات المعدة بحتمية ضم جيم ’جدة ● تاريخ العين العزيزية بجُدة ومصادر المياه في المملكة العربية السعودية طبع باللغتين العربية والانكليزية ● مع ابن جبير في رحلته ● رحلة في كتاب من التراث .. (وهو هذا الكتاب) ● طريق الهجرة النبوية .

● الكتاب القادم من :

هذه السلسلة

هـــو :

● الحسن بن أسد الفارقي ●

أخباره وأشعاره

للباحث العراقي الكبير :

[هــلال ناجي]

المكتبة الصغيرة

سلسلة كتب ثقافية

يصدرها: **عبد العزيز الرفاعي**

الرياض : ص . ب : ١٥٩٠

[مطابع الروضة ـ جدة]

الكاتب .. والكتاب



أما الكتاب فمن كتب التراث الطريفة ، يعنى بما ورد على البديهة من رائع الأقوال والأشعار .. ومن هنا كان اسمه (بدائع البدائه) ومؤلفه (علي بن ظافر الأزدي الخزرجي) من مشاهير أدباء القرن السادس الهجري ..

وأما الكاتب فأستاذ الجيل . العلامة البحاثة الشيخ عبد القدوس الأنصاري ، أحد الرواد القلائل الذين قام الأدب في المملكة العربية السعودية على أكتافهم القوية .. وهو صاحب مجلة المنهل .. المجلة العتيدة الصامدة ، التى بلغت من عمرها المديد العام الرابع والأربعين .. والتى كانت ولا زالت ميدانا جال فيه الكثير الكثير من الفرسان !

والأستاذ الأنصاري أسهم في ضروب متنوعة من الأدب ، فارتاد القصة ، وكتب الشعر ، وأغنى المكتبة العربية بعدد وافر من المؤلفات في تراجم الاعلام والمدن ، وفي الأدب ، والتاريخ ، والآثار .. وكتابه المقدم اليوم من (المكتبة الصغيرة) هدية من قلمه المتمكن الرصين ؟

صاحب المكتبة الصغيرة

عبد العزيز الرفاعي

مطابع الروضة بجدة